تاريخ الزواوة

تأليف: أبو يعلى الزواوي



مراجعة وتعليق: سهيل الخالدي

تأليف: ابو يعلى الزواوي

تاريخ الزواوة

مراجعة وتعليق: سهيل الخالدي

منشورات وزارة الثقافة
EDITIONS
MINISTERE DE LA CULTURE

تاريخ الزواوة

تأليف: أبو يعلى الزواوي

مراجعة وتعليق: سهيل الخالدي

مشورات وزارة الثقافة
الجزائر

العنوان: تاريخ الزواوة

تأليف: أبو يعلى الزواوي

مراجعة وتعليق: سهيل الخالدي

مديرية الفنون والآداب

تحت اشراف: د. ربيعة جلطي

الطبعة الأولى 2005

الإهداء:

إلى الصديق الحاج محمد أمزيان الحسيني بن بوجليل ولاية بجاية - الوفي.

مع كل المحبة والتقدير

سهيـل

إلى من يهمه الأمر

رغم أن بعض تعليقاتي على كتاب تاريخ الزواوة هذا نشـرت ي بعض اليوميات الجزائرية في ذروة الفتنة التي شهدتها الجزائر لا أنني أود -أولا- أن أوضح خاصة "للأشخاص حسني النوايـا" أني هنا أعلق على هذا الكتاب، كما يعلق صحفي قارئ يسـجل عليقه على هامش الصفحة. ويجب أن يكون واضحا بأني لا أحقق لا أدقق ولا شيء من ذلك الذي له علاقـة بالعمـل الأكـاديمي الباحثين الأفاضل.

وأما اعتمادي في تعليقي على بعض الكتب الأخـرى وبعـض لمراجع وأحيانا تلك المراجع التي لها قيمة المصدر، فما ذاك إلا إنعاش الذاكرة، كما يجدر بمعلق يحترم كلمته، وليس كما يليـق باحث أو مدقق يضيف إلى الاحترام، الدقة والتمحيص والتوثيق.

ومن بين الكتب التي اعتمدتها في هذا التعليـق: رحلـة ابـن جبـير، رحلة ابن بطوطة، العرب واليهود في التـاريخ، أعـلام لجزائر، عروبة البربر والحقيقة المغمورة، عروبة الجزائر عبـر لتاريـخ، الحركة التبشيريـة الفرنسية في الجزائـر، تأمـلات ي مسألة الأقليات، أبحـاث وآراء في تاريخ الجزائـر، لسـان لعرب الأمازيغ، التكويـن التاريخي للأمة العربيـة، الحضـارة لفينيقيـة، الأمازيـغ وقضيتهـم في المغرب الكبير، سطـور ن الرسالة.

وهناك كتب أخرى رجعت إليها بعضها ذكرته وبعضها لم أذكره إضافة إلى أوراقي الخاصة ومخطوطاتي التي لم تنشر بعد، ومنها مخطوط بتاريخ الحرف العربي الجريح، ومخطوط شخصيات جزائرية في المشرق العربي، وغيرهما... ولم أشأ أن أخصص ثبتا أو هوامش لهذه المراجع حتى لا يختلط على البعض أن ما أقوم به هو شيء غير التعليق.

ولأن هناك بعضا من سيئي النوايا في مجتمعنا الجزائري خاصة دعاة التفتيت والتشتيت والحروب المجانية، ممن يكتبون في بعض صحفنا، هم على سوء نواياهم -يتمتعون- بمجهولات واسعة، فبعضهم يدعي أنه وحده الذي يفهم الرسالة المحمدية، وبعض آخر يدعي أنه هو الذي علّم ماركس وبعض ثالث يدعي انه ألهم فولتير، والبعض الرابع ولعله الأخطر، يدعي أنه الطبيب الذي أشرف على ولادة أول بربري في جبال الأطلس، فجعل من نفسه وصيا سياسيا وناطقا باسم الأمازيغ والأمازيغية ولأن ذلك كذلك، أقول:

لا يهمني في قليل أو كثير أن أمازيغ له أو ليس له علاقة بيعرب، فلا أعتقد أن أحدا في هذا الكون متأكد من نقاء عرقه، فالذين يشتغلون في تصنيف أعراق البشر وأنسابهم، إنما يضحكون على السذج من البشر فهؤلاء المشتغلون أنفسهم لا يستطيعون الادعاء بنقاوة نسبهم الشخصي فضلا عن القومي.

وهنا لست أزعم بأني من أهل السياسة وأحزابها وأن لي معرفة اهلها، غير أني أؤكد اهتمامي بالحضارة والثقافة ولا أنكر ا بينهما وبين السياسة من علاقة، وهي كعلاقة النجار بالخشب.. ' أحد يستطيع أن يقرر قرارات قاطعة مانع، من منهما يعطي يمة للآخر أهو النجار أم الخشب، أهي الثقافة أم السياسة؟!

إن الذي اعتقده وأؤمن به حتى الثبات هو أن شعبنا الأمازيغي خل التاريخ مع الفينيقيين (حضارة الشرق) وليس مع اليونان حضارة الغرب).. ثم أبدع وصنع التاريخ مع الحضارة العربية يث صار البربر عربا والعرب بربرا، فمن ذا الذي يؤكد لي أن عقبة بن نافع هو فعلا من صلب يعرب وليس من صلب أمازيغ!

لذلك يؤلمني كمواطن أن أرى البعض من (أدعياء الثقافة سياسية) من الجزائريين وغير الجزائريين يلعبون بحضارة شعبنا عقله وثقافته ويصورون الأمازيغ على أنهم شعب انتهازي، ليس ه كلمة في التاريخ. ففي نظرهم حين كان الرومان سادة العالم ان الأمازيغ روما نصارى، وحين ساد العرب العالم صار لأمازيغ عربا مسلمين. ولأن العرب اليوم في ضعف، ها هم لأمازيغ يبحثون عن "أرومة" أوروبية ينتمون إليها.

وهذا فضلا عن كونه إهانة لأمازيغيتنا هو تلاعب استعماري قح، وجهل "حضاري" مقيت... وسذاجة من بعض سياسيينا لأنه كذلك رفض الأمازيغ والعرب في الشام مقولة الدعاية لفرنسية وقبلها التركية. من أن الأمازيغ ليسوا عربا وجاءوا

مع الأمير عبد القادر ثم بعده المقراني، ليحتلوا الشام وليستعمروه، وقد تصدى الجزائريون الأمازيغ والعرب الشوام لهذه الدعايات وأسقطوها كما اسقطوا ويسقطون في الجزائر دعوى أن العرب جاءوا مستعمرين وغزاة. وهذا الكتاب الذي أعلق عليه هو أحد الكتب التي أسقطت دعايات الاستعمار تلك.

وبالتأكيد فإني على علم بأن عالمنا المعاصر تتنازع كتابة تاريخ الأمم فيه، مدرستان: المدرسة الاستعمارية التي تسعى لإلحاق حضارات البشر بروما، فالمسرح والغناء والرقص وحتى "الله" نفسه هو روماني أو إغريقي. والمدرسة الإنسانية التي تحترم جهد كل الشعوب وكل الأمم -في كل مراحلها- في صنع التاريخ والحضارة البشرية، فكما لليونان جهد، للهنود جهد، وللصينيين جهد، وللعرب جهد، وللفرس جهد...

ولعله من الواضح إنني من محبذي المدرسة الإنسانية هذه وبالتالي فأنا بالغ الاعتزاز بعروبتي وعلى رأسها الأمازيغ الذين أضافوا إليها وطوروها لأنهم منها ولها، بل لعلهم أصلها فكما أن الشيوعية وجدت قبل لينين فإن الإسلام وجد قبل محمد فإبراهيم كان مسلما حنيفا، وكما أن ألمانيا وجدت قبل بسمارك فإن العروبة لم تولد مع عقبة.

لذلك فأنا أنظر باحتقار لكل أولائك الذين يسعون إلى ضرب القبائلي بالشاوي والأمازيغي بالعربي والمسلم بالنصراني، والسني والشيعي، والآشوري والفينيقي فهذا النوع من "الصراعات

ردیئة" لا یرتقى بالحضارة البشریة، وقد تجاوزتها الشعـــوب على وجه هذا الكوكب منذ أزمان وأزمان... وقد وعى الشيخ أبو على الزواوي مؤلف هذا الكتاب.. هذه الحقيقة منذ مطلع القــرن فضل من بعض "مثقفينا السياسيين" في نهاية هذا القرن!.

إذن فليكــن واضحا كل الوضوح بأنــي المســؤول الوحيــد عن تعليقي، فلا الناشر مسؤول ولا أبو يعلى الزواوي مســؤول، آمل أن لا يكون ذنبــي عند البعــض أني لــم "أؤجــر" عقلــي لأكاديمية البربرية أو معهد العالم العربــي، فالــذين يــؤجرون عقولهم يهون عليهم تأجير وطنهم، وأنا لا أؤجر حبة رمل واحدة من وطني الممتد من شنقيط حتى حضرموت إنه بيتي حتى ولو لم متلك فيه مساحة قبر!!

الجزائر **2005/01/05**

مأوى المسنين/باب الزوار

سهيل

كيف عثرت على الكتاب؟

لما كنت في دمشق الشام مارس 1987-أفريل 1991 قادما إليها من ليماسول في قبرص التي قضيت فيها الشتاء (ديسمبر 1986 وجانفي وفيفري1987) مستجما بعد سنوات عمل متواصلة في الكويت جانفي 1979- ديسمبر 1986، قدمتها وفي نيتي إنجاز عدد من الكتابات الروائية والإعلامية وكتاب عن الجالية الجزائرية في الشام استنادا على أوراق وصلت إلي من أوراق الوالد والجد المهجرين من منطقة واد البردي في ولاية البويرة وهكذا قضيت أعواما أربعة لا عمل لي غير التنقل بين مكتبة الأسد في طريق المزة ومكتبة الظاهرية في دمشق القديمة وأثناء مراجعتي للفهارس في مكتبة الأسد " حرف الزاي وجدت اسم الزواوي، وبجانبه اسم الكتاب " تاريخ الزواوة" طلبته من الموظف، فلما أتاني به طلبت تصويره على الفور وفي نفس اليوم انتقلت إلى مكتبة الظاهرية وبحثت عنه في فهارسها وصورته. وهكذا اجتمعت لدي نسختان مصورتان. وعدت إلى بيتي كمن عثر على كنز وهو كنز فعلا.

وفي اليوم التالي ذهبت إلى مختار الجزائريين في حي السويقة بدمشق الأستاذ "ابح مزيان" وبحثنا معا عن اسم الشيخ أبو يعلى في السجلات الموجودة عنده وهما سجلان أحدهما تركي العهد يعود إلى عام 1904 على الأرجح والآخر فرنسي العهد يعود إلى عام 1923 ولم نجد للشيخ تسجيلا أو أية إشارة لسكنه أو عائلته.

فما كان مني إلا أن ذهبت إلى للأستاذ أحمد سهيل الفضيل الجزائري الذي جاوز من العمر سبعين عاما – توفي عام 2003– وكان أحمد سهيل يشغل دائما منصب سكرتير جمعيات الجزائريين في الشام وأمدني بكثير من المعلومات هو ابن الحاج بلقاسم بن محمد الفضيل الذي ذكره أبو يعلى في الكتاب المهجر من عين الحمام وشغل مناصب رفيعة في سورية، وأبلغني بأن الشيخ الزواوي كان على علاقة بوالده الحاج بلقاسم، وأنه لم يطل به المقام في دمشق، بل أن كتابه هذا لم يعد متداولا أو معروفا خاصة وأن مكتبة جمعية المقاصد الخيرية المغربية في السويقة لم يعد لها وجود، وليس هناك من سبيل سوى العائلات الجزائرية نفسها ولما كان الدكتور مازن المبارك قد انتقل من جامعة دمشق إلى جامعة دبي، وتوفت والدته في تلك الفترة، لم أشأ إزعاجه بالموضوع فلجأت إلى الأستاذ محمد اليعقوبي وهو شاب جزائري مثقف من مواليد دمشق يتقن العديد من اللغات ومتعدد المواهب ورث مكتبة عن أبيه عن جده عن جد أبيه بعض كتبها انتقل مع جد والده المهجر عام 1847 من آيت سعادة فجاء إلي الأستاذ محمد اليعقوبي بنسخة مصورة من الكتاب عينة ولكنني لم أستطع العثور على ترجمة دقيقة للمؤلف يمكن اعتمادها غير تلك الأحاديث الشفوية، وإن كنت قد بدأت أجمع خيوط الرجل من بعض ما كتبه في "المقتبس" الدمشقية وفي غيرها.

ولما كان من مشروعي الأساسي في دمشق هو إنجاز كتاب عن المهجرين الجزائريين في الشام ودورهم في حركة التحرير العربي، "الذي نشر في الجزائر بعنوان الإشعاع المغربي في الشرق العربي" ونشاطهم الفكري والثقافي هو

جـــزء من هذا الدور، وموضوع الشيخ أبو يعلى، هو جزئية في هذا النشاط، خشيت أن تشغلني الجزئية عن المشروع فركنت الكتاب جانبا مع تلك الكتب التي عثرت عليها من مؤلفات الجزائريين في الشـــام والتي تبلغ عددا يمكننـــي من الزعم بأنـــي أملك مكتبة من هذه الكتب، والتي آمل أن أنشـــرها بـــين الناس.

وحين قدمت الجزائر في ماي **1991**، أردت أن أثير موضوع هذا الكتاب علي أجد من يساعدني في أن أعود إليه، فإذا بأستاذنا المؤرخ الكبير أبو القاسم سعد الله يبلغني أنه يبحث عن هذا الكتاب حيث سبق له وان نشر مقالة حول رسالة عثر عليها من رسائل المؤلف، تتحدث عن مشروع الكتاب، فســـلمت النسخة للدكتور أبو القاسم سعد الله وواصلت بحثي حول الزواوي مسترشدا بمكاتبة الدكتور أبو القاسم سعد الله.

من هو المؤلف؟

يقول الدكتور أبو القاسم سعد الله في كتابه أبحاث وأراء في تاريخ الجزائـــر الجزء الثاني الصادر في الجزائر عام **1986** في بحث بعنوان {مشروع كتـــاب تاريخ زواوة} لأبي يعلى الزواوي معرفا بهذا الشيخ الجليل (فهو السعيد بـــن محمد الشريف بن العربي ابن يحي بن الحاج بن آيت سيدي محمد الحاج بزواوة ومن ثم نسبته الزواوي ولد بقرية تعاروست بزواوة حـــوالي ســـنة **1862**) ص**145** غير أن المؤلف نفسه شككني بتاريخ مولده الذي ذكـــره أســـتاذنا الفاضل سعد الله إذ قال في ص **62** من مؤلفه (وقد رأيت والدي رحمـــه الله

في قرية صوامع في بني بوشعايب في وسط معمعة في سنة 1869م وأنا ابــن أربع سنين) فحسب هذا النــص يكون مؤلفنا من مواليد 1865 ومع أن ابن أربع سنوات لا يتذكــر على الأرجح تلك التفاصيل التي يذكرها أبو يعلى مما يجعلنا نميل إلى ما ذكره الأستاذ سعد الله حيث يكون عمر مؤلفنا وقت وقوع الحادثة التي أوردها بحدود 7 أو 8 سنوات وهو عمر يمكن أن يتــذكر بــه الطفل الذكي حوادث كتلك. إنني كتبت في عدد جريدة الشعب المشار إليه سابقا أطلب من القراء إسعافي وقلت (أود أن أعلم القارئ الجزائري أني أقوم بتحقيق وتدقيق هذا الكتاب وكتب أخرى للمؤلف لذا سأكون شــاكرا لــو تفضل أحد من عائلته أو قرابته بإفادتي عن تفاصيل حياته) وكانت الاستجابة الوحيدة من طرف محمد حسن عليلي اليجري الزواوي في جريدة الخبر المشار إليه ويبدوا أن الشيخ أبو يعلى الزواوي قام برحلات عديدة "نحن نعرف أن له ثلاث رحلات إلى دمشق التي حرر فيها كتابه هذا وإلى القاهرة حيث ســكن مع الشيخ طاهر الجزائري إذ يقول (ولما اجتمعت به بمصر وسكنا معا مــدة خمســة أعوام تقريبا كلفني بتحرير مقالات كثيرة وبتأليف في النحو وأخــر في إلزام الشبــان الأصحاب بالتدين وألح على إثبــات مذكراتي ونظراتــي في السياسة وكان معجبا بها شهادة الإخوان الشاميين والمصريين الذين هم بقيد الحياة) ص 103 ولا يحدد أبو يعلى متى التقى بالشيخ طاهر ومتى سكنا معــا إلا أنه يفهم من النص في نفس الصفحة أن ذلك كان خلال الحرب العالميــة الأولى ومعروف أن هذه الحرب استغرقت لفترة 1914 –1918 وكــان الشيخ طاهر الجزائري قد هرب من دمشق إلى مصر فارا من اضطهاد الأتراك

له **1905** وظل فيها حتى سنة **1920**.

ولا يبدوا أن الشيخ أبو يعلى قد انتقل من مصر إلى دمشق حيث نجد أنه في عام **1917** قام برحلة إلى باريس إذ يذكر في رسالة بعث بها إليه ابن زكري فيقول (فمن ذلك ما كاتبني به الأستاذ المرحوم العلامة الحافظ الزواوي الشيخ محمد السعيد بن زكري مفتي الجماعة بمدينة الجزائر في ماي **1917** أيام إقامتي بباريس) ثم يوضح أنه وصلته من ابن زكري رسالة أخرى بتاريخ يونيو في السنة المذكورة.

ويبدو أن أبو يعلى الزواوي قد قام برحلة إلى تونس وهناك تعرف على الشيخ الطاهر الجزائري إذ يقول الأستاذ سعد الله (فقد زار الشيخ الطاهر موطن آبائه الجزائر حوالي **1893** فوجد الشيخ أبا يعلى في تونس) ص **146**.

وقد حاولت أن أجد سندا لرحلتين محتملتين أولاهما أن يكون أبو يعلى قد زار الحجاز لأداء فريضة الحج وثانيها أن يكون أن يكون قد زار فلسطين لأن الذاهب من دمشق إلى القاهرة عبر القطار في تلك الأيام كان لابد له أن يأخذ قطار دمشق–حيفا ومنها إما أن يأخذ السفينة أو أن يواصل بالقطار حتى غزة ولكنني لم أعثر على سند صحيح... وفي اعتقادي أن للرجل رحلات سيكون من المفيد إذ ما عرفنا ذات يوم أنه دونها فحتى الآن لا نعرف إذا ما ترك مذكرات.

وفاته وآثاره

توفي الشيخ الزواوي في أوائل يونيو -حزيران **1952** كما ذكر الأستاذ سعد الله وكما أكد لي قريبه المشار إليه الذي حضر الوفاة والدفن.. وترك أبو يعلى عددا من المؤلفات والمخطوطات والمقالات المنشورة في الصحف الجزائرية والمصرية والشامية، ذكرها الدكتور سعد الله في كتابه وقرأ كتاباته كثير من العلماء الذين عاصروه وأعتقد أنه من الأهمية بمكان أن يقوم أحد المهتمين بجمع هذا التراث الضخم وتحقيقه ونشره خاصة وأن الرجل لم يعقب ذكرا بل توفي عن ابنتين.

أهمية الكتاب

يتألف الكتاب من **104** صفحة من المقطـــع الصـــغير قيـــاس (**13/21**) وطبـــع في مطبعة الفيحاء في دمشق الكائنة في شارع مدحت باشا "كان واليا على الشام وصدرا أعظم – وزير أول– في العهد التركي" وقد طبع على نفقة أحد رجال التصوف المعروفين من المهجرين الجزائريين في دمشق، وهو أمازيغي أيضا واسمه عمر بن طيب الزواوي وقد حفظت حقوق الطبع للمؤلف نفسه، ونشر الكتاب عام **1340** هـــ.

وقد ورد اسم الكتاب والكاتب كالتالي {كتاب تاريخ الزواوة تأليف الفقير الضعيف الراجي عفو ربه اللطيف السعيد بن محمـــد شـــريف أبـــو يعلـــى الزواوي}.

يهدي المؤلف كتابه إلى السيد أحمد الهاشمي بالصيغة التاليـــة: {إلى صـــاحب الشرف الممجد، ذي السيادة القعساء الصحيحة السند، إبن على الشـــريف السيد أحمد الهاشمي العلوي الفاطمي الزواوي}.

ويضيف المؤلف في الإهداء: {مولاي كان لتاريخ الزواوة شأن عظيم، وأنتم من الأعاظم، وكان لهم نسب كريم، وأنت من الأكارم، أما وقد كان أو كاد ينسى، فاقْبل مني أن أجدده لعلنا نتأسى كما قال الأول:

فتأسوا بمن مضى إذا ظلمتم   فالتأســـي للنفـــس عـــزاء

فأهديه إلى سيادتكم العظمى، ولكم فيه الكلمات العليا.}

أما السيد أحمد الهاشمي فهو "على الأرجح" أحمد جودت الهاشمي الينيـــوي الذي هاجر والده من "بني يني" وأظهر نبوغا في الرياضيات وتخرج من جامعة استامبول وباريس وأسهم في الحركة الوطنية في الشام وكان أول رئيس لجمعية المقاصد الخيرية المغربيـــة، وسأقدم له ترجمة مفصلة حين يرد ذكره في الكتاب. غير أن السيد حسن عليلي قال أن المعني بالإهداء ليس هو الشخص الـــذي رجحت... ولكنه لم يقدم أية معلومات عن أحمد الهاشمي المذكور.

وكتاب تاريـــخ الزواوة مكتوب بلغـــة عربية جميلة وبأسلـــوب هو أقرب إلى أسلوب المحدثين منه إلى أسلوب القدامى رغم ما فيه من السجع.

أما أسباب تأليف الكتاب فهي واضحة وقد أعلنها المؤلف مـــن الإهـــداء والخطبة والتي هي إزالة الظلم الذي لحق بتاريخ الزواوة بالقول أنهم غير عرب فهو يقول في خطبة الكتاب:

{وكان مولـــدي بالزواوة، ومنشاي ومرباي في تلك الزوايـــا، وكـــادت شهـــرة القبائل الصنهاجيـــة تكون طامسة الأعلام مجهولة لأسباب كـــثيرة، وقضايا منـــها ما هي مقبولة، ومنها ما هي مزورة مردودة تحرك لي الســـاكن واستنجدني الظاعن والقاطن فأردت أن أضع كتابا صغير الحجم، كبير العلم، كنمـــوذج من تاريـــخ الزواوة مقتصـــرا على تبيين نسبهم، وذكر شـــيء من فضائلهم... فانتدبني كثيـــر من الزواوة لتحرير شيء بمـــا يتعلـــق بهـــم ونسبهم}.

{ويضع عند كلمة "استنجدني" هامشا يقول فيه أسفل الصفحة الثالثة إشارة إلى الجهال المهذارين بان الزواوة برابرة ورومان..إلخ}.

إذن فنحن أمام كتاب هام يشكل وثيقة تاريخية حررت بطلب وتكليف جماعي من الزواوة لتبيان تاريخهم والرد على من يقول أنهم غير عرب... ولعل هذا يفسر لماذا لم يصل الكتاب إلى القارئ الجزائري رغم مرور هذه المدة الطويلة على طبعة ونشره، ويوضح لنا أن الاستعمار الفرنسي وأكاديمياته ومثقفيه يعملون منذ وقت طويل على إشاعة الفتنة والحرب الأهلية في أي قطر عربي يبتلي بهم ويريدون من الزواوة، {أو القبائل أو الأمازيغ أو البربر} أن يكونوا وقودا لهذه الفتنة وأداة من أدوات الانفصال والتقسيم.. ولكن الزواوة تفطنوا لهذه الحيلة وأفسدوا على المستعمر الفرنسي سواء في الجزائر أو في الشام مسعاه، وقادوا حركة النهضة العربية-الإسلامية مشرقا ومغربا فكانوا على رأس القومية العربية في يوم الوقيعة خيولا عربية سريعة.

أما منهج الكتاب ومصادره ومراجعه ينطبق عليها ما قلناه على الأسلوب، فإذا كان الكاتب يعتمد على السجع كما هو حال مؤلفي مطلع القرن، فإن منهجه كمنهجهم يحاول التخلص من المنهج القديم ليدخل قدر الإمكان بالمنهج الحديث، ونجده يذكر مراجعه وكلها من أمهات كتب التراث مثل كتب ابن خلدون والمسعودي والطبري وابن إسحاق والكلبي وابن الأثير وابن الخطيب والمقري والواقدي وغيرهم ويحاول المؤلف أن يشير إلى بعض الصحف والخطب وكذا الوقائع والأحداث التي شهدها.

ويبدوٌ أن البحث قد استغرق منه عدة سنوات وعرضه على كثير من مثقفي زمانه وقد فرغ منه كما ورد في صفحة **93** {عشية يوم الأربعاء **19** ذي القعدة الحرام عام سبعة وثلاثين وثلاثمائة وألف للهجرة}.

أسباب تأليف الكتاب ومنهجه

إذن فإن أسبـــاب تأليف الكتاب هي كما أسلفنا إزاحة الظلم الذي وقـــع على البربر عموما والزواوة منهم خصوصا من طرف مثقفي الاستعمار وذلك بسعي هاته الفئة إلى طمس تاريخ الزواوة وفصلهم عن بني أرومتهم العـــرب من جهة، وإنكار إسهام الزواوة في الحضارة البشرية، لإخراجهم من التاريـــخ وزرع الفتن بينهم وبين أهلهم سواء في القطر الجزائري أو في سائـــر أقطـــار الوطن العربي من جهة أخرى، وللمستعمر أهدافه الكثيرة من وراء ذلك لعل في طليعتها استمرار التخلف، فما دام الزواوي متخلفا جائعا خائفا في بلـــده، فهذا يعنـــي أن فرنسيا متقدما شبعانا آمنا في فرنسا، فكما لم يغتني عنـــي إلا من فقر فقير فلا استعمار دون تخلف وجوع وخوف.

وبالتأكيد فإن هذه الأسباب التي يوردها الشيخ أبو يعلى الـــزواوي هـــي أسباب أكثر من وجيهـــة سواء من الناحية العلمية المحضة، حيث يجب أن يبرز الحقيقـــة على أيدي العلماء قبل غيرهم من بني البشر، أو من الناحية الوطنية والعشائرية والدينية فهل يرضى جزائري له ذرة من الوطنية أن يسكت وهـــو يرى الفتنة تزرع في وطنه، وهل يرضى زواوي عاقل له ذرة من حب الزواوة عشيرته وأهلـــه، أن تستغل عواطف هذه العشيرة وهؤلاء الأهل ليزج بهـــم في فتنة تسيل فيها دماؤهم ويسيلون فيها دماء غيرهم، لا لشيء إلا ليســـتفيد الأجنبي المستعمر وبعض المنتفعين من أشخاص وعائلات كائنا مـــن كانـــت ثقافتهم أو وظيفتهم أو عائلاتهم أو عاطفتهم وهل يرضى مسلم عاقل له ذرة

من دين أن يرى أبناء دينه في فتنـــة لا دين لها، و لا يستفيد منها إلا ســوى أعداء الدين و المنتفعين به، وهل يرضى إنسان عصري وحـــديث بأســـاليب الهمجية؟

ولعله من الواضح أن الزواوة ســـواء كانوا من المقيمين في أرض الوطـــن أم من المهجرين إلى الشام رفضوا تلك الدعاوى التي بثها المستعمر الفرنســـي في الجزائر وفي سورية ولبنان بأنهم غير عرب وأنهم بربر ورومان وما إلى ذلك، وهم الذين حثوا أبو يعلى الزواوي على تأليف كتابه بالإضافة إلى رغبته هـــو ودوافعه هو لإزاحة الظلم والتزوير. وكان في هذا واضح العبارة فهو يـــربط الأسباب والعلاقات والدوافع والتشجيعات ربطا محكما ومنطقيا... إذ يقول:

(وكان مولدي بالزواوة، ومنشاي ومرباي في تلك القرى ذوات الزوايـــا، وكادت شهرة تلك القبائل الصنهاجية تكون طامسة الأعلام مجهولة، لأسباب كثيرة، وقضايا منها ما هي مقبولة، ومنها ما هي مزورة مردودة... تحـــرك لي الساكن، واستنجدني الظـــاعن والقاطن، فأردت أن أضع كتابا صغير الحجم، كبير العلم، كـــأنموذج من تاريخ الزواوة، مقتصرا على تبيين نسبهم وذكـــر شيء من فضائلهم، وما قيل فيهم، وما كان لأوائلهم، ليكون النشء الجديـــد على بصيرة من سلفهم، ليعلموا ما كان من أمرهم، ليقتدوا بكل فعل مجيـــد، وينبذوا كل ما هو غير سديد، لعلهم يأخذون ببعض القديم وبعض الجديـــد، والتزام الأحماض فيه لتنشيط قارئيه، لأنفخ فيهم روحا قوية، وأبعـــث فـــيهم ذوي همم عالية، وأهدي إليهم هذا الكتاب المستطاب، فإن فعلوا فذاك هـــو الصواب، وإلا فما علي من حساب) ص **3-4**.

إذن فإن أبو يعلى الزواوي لا ينكر ولا يخفي دوافعه الوطنية والعشائرية الدينية في تأليفه لهذا الكتاب، بل هو يحمل الأجيال الجديدة مسؤوليتها إن مي انساقت وراء أولائك الجهال والمهذارين الذين يدقون الأسافين بين لجزائريين الزواوة والجزائريين غير الزواوة... بل وأكثر من ذلك فهو ينبه هذه الأجيال الجديدة بان عليها التمحيص والتدقيق والأخذ بأفضل ما في القديم وبأفضل ما في الجديد... ولعمري إن أبو يعلى كان في هذه العبارات البسيطة مربيا كبيرا...!!

ثم يتطرق إلى المنهجية حيث قسم كتابه إلى فصول سبعة تجدها منطقية الترتيب والتصاعد، فقد تحدث عن علم التاريخ وفضله أولا، ثم نجده يدخل موضوعه مباشرة إذ خصص الفصل الثاني لنسب الزواوة وهو يكاد يكون أطول فصول الكتاب من صفحة 12 إلى صفحة 26 ثم يرفده بفصل ثالث غير منفصل عن الثاني ألا وهو محامدهم وخصائصهم، وأما الفصل الرابع فهو في زواياهم وعلمائهم وخدمتهم العربية، والفصل الخامس في بعض عاداقم وأما الفصل السادس ففي المطلوب لإصلاح حالهم وخصص السابع للائحة التعليم ونظامه الذي يقترحه ويبين طريقة التعليم.

ونحن في عصرنا هذا حيث في الجزائر عدة جامعات ومنها جامعة تيزي وزو، لو دققنا النظر أن لكل فصل منها يستحق لوحده أطروحة جامعية خاصة.

فالرجل كان عالما محيطا بموضوعه أيما إحاطة عارفا بأبعاده وخفاياه، ويعرف وعورة الطريق الذي يسير عليه، فأن نقول في أول القرن العشرين، والاستعمار ينيخ بكلكله على صدرك، إن الزواوة عرب، فتلك والله بطولة،

خاصة وأن العرب كانوا في ذلك الوقت ومازالوا حتى الوقت، لا يقدمون للباحثين والكتاب العطايا والهدايا من النساء والقصور والسيارات، والانتساب إليهم لا يخرج الإنسان من العوز، وإن كان يدخله في العزة!!

نجد المؤلف ينتقل للحديث عن الوضع السائد في منطقة القبائل ورأيه في طريق إصلاحها فيتحدث عن الإصلاح المطلوب، الإصلاح الإسلامي، لائحة نظام التعليم وبيان طريقة طرق التعليم الابتدائي، الكتب التي يدرسونها، الإدارة والتفتيش للزوايا، ويبدوا أن هذا القسم هو ملخصات لما ورد في كتب سابقة له واعتبارا من الصفحة **93** نجده يتدارك ما فاته في بعض الفصول فيعود لنسبهم ولأجوادهم ونوابغهم وإلى ذكر أسماء بعضهم ممن حموا تحت قيادة الأمير عبد القادر الجزائري نصارى دمشق في فتنة **1860**م ثم يفرد فصلا بعنوان " تقريظ الكتاب" يورد فيه نصوص ورسائل وردته مقرظة كتابه من مفتي مدينة الجزائر الشيخ بن زكري مؤرخة في ماي **1917** وأتبعها بأخرى مؤرخة في يونية من نفس السنة، ويقحم المؤلف رسالة ثالثة بجواب على تعزية لابن زكري ولا علاقة لها بموضوع الكتاب ولا يذكر تاريخها.

الأمازيغ في سورية

لعله ليس معروفا على نطاق واسع بين الناس أن الأمير عبد القادر الجزائري حين أوقفَ مقاومته المسلحة للاحتلال الفرنسي عام **1847** م/**1263** هـ، كان قد أمر علماء ورجال دولته وجيشه بالهجرة إلى الشام حتى لا تشن عليهم فرنسا حرب إبادة كما هي عادتها. وبالفعل فقد هاجر هؤلاء

ع عائلاهم ويبلغ تعدادهم جميعا حوالـــي خمسمائة نفر وقد وصلوا إلى دمشق لشام فاستقبلهـــم الشوام استقبالا عظيما قلقت منه حكومة الباب العالـــي ي استامبول. وعرفت هذه الدفعة بهجرة المشايخ "إذ أعقبتها دفعات أخرى ولم سلم الأمير سلاحه إلا بعد أن تأكد من وصولهم إلى دمشق.

وكان معظم هؤلاء المهجريـــن الجزائريين سواء من هذه الدفعة الأولـــى أو لدفعات التي تلتهم من الأمازيغ أو البربر أو القبائل أو ما شئت من التسميات لتي أطلقـــت على عرب جرجرة والأطلس وعلى رأس هؤلاء الشيخ المهدي لسكلاوي شيخ الزاوية الرحمانية والشيخ محمد المبارك " دلـــس" والشـــيخ صالـــح السمعوني "بجاية" والشيخ أحمد بن سالم "البويرة"، واليعقوبي، وأعراب وغيرهم، وقد تطرقت إلى موضوع الهجرة في كتابي "الإشعاع المغربي في بـــلاد لمشرق العربي" —دور الجالية الجزائرية في بلاد الشام، المنشور في الجزائر.

– وقد جلس هؤلاء العلماء على الفور في مجالس العلم في مدارس وزوايـــا ومساجد دمشق حيث أمن لهم إخوهم عرب الشام كـــل ســـبل العيـــــش والعمل، وأقطعتهم الحكومة التركية أجود الأراضي في غوطة دمشق وســـهل حوران وأرض الجليل.

وبدأت بهم في الشـــام نهضة علمية حيث شهدت المدرسة الجقمقيـــة ودار الحديـــث وجامع العنابة والزواية الأخضرية فضلا عـــن المســـجد الأمـــوي الكبـــير ومسجد السنانية دروسا واسعة لهؤلاء. وحتى الأمير عبـــد القـــادر الجزائري نفسه حين وصل دمشق عام **1856** أخذ مقعده على رأس هـــؤلاء مدرسا في الجامـــع الأموي والمدرسة الجقمقية ودار الحديث.

ولم يقل أحد من المشارقة أن هؤلاء أمازيغ أو بربر أو قبائل ليس لهم أن يحتلوا مكانة في المجتمع، بل على العكس تماما فإن هؤلاء هم الذين حموا النصارى في الفتنة التي أشعلتها الدول الكبرى في الشام عام **1860**، وفي عام **1877** عرض المشارقة على الأمير عبد القادر الجزائري أن يكون ملكا على رأس الدولة العربية التي أرادوا استقلالها عن تركيا التي استبدت وابتعدت عن روح الإسلام.

وكان هؤلاء الأمازيغ بمن فيهم الدفعات التي هجرت إثر ثورة المقراني عام **1871** ومجموعة الشيخ محمد بن يلس التي هاجرت إثر قانون التجنيد الإجباري عام **1911** يوجهون المجتمع الشامي ضد كل الاستعمار الغربي، والفرنسي منه خصوصا، وضد الاستبداد التركي، ويثيرون في هذا المجتمع الشامي روح القومية العربية والثقافة العربية الإسلامية ويحيون الأمجاد العربية، فاستجاب لهم المجتمع وعمل تحت رايتهم وقد تأسست نتيجة هذه الحركة "جمعية النهضة العربية"" عام **1904** بقيادة الشيخ طاهر السمعوني الجزائري ابن الشيخ صالح السمعوني الذي هاجر كما أشرنا عام **1847** من بجاية تحديدا من وغليس بلدية سيدي عيش دائرة أقبو في واد الصومام وقبيلة بني سمعون التي عند أهلها الخبر اليقين.

ومن جمعية النهضة العربية انبثقت جمعيات القومية العربية كالجمعية القحطانية وجمعية العهد وجمعية العربية للفتاة التي أعلنت الثورة العربية على تركيا عام **1916-1918** بالاتفاق مع شريف مكة الحسين بن على وولده فيصل. وقد أعدم الأتراك خيرة رجال هذه الجمعيات وفي طليعتهم ذلك

الضابط الفيلسوف "سليم الجزائري" وهو ابن أخ الشيخ طـاهر وتلميـذه، والأمير عمر نجل الأمير عبد القادر وغيرهما من الجزائريين فضلا عن الشوام، وكان الشيخ الطيب العقبي هو الناطق الإعلامي باسم الشريف حسين حيـث يرأس تحرير جريدة "القبلة" لسان حال الثورة العربية.

وهكذا قاد البربر الأمازيغ "القبائل" حركة القومية العربية منـذ منتصـف القرن التاسع عشر حتى الآن، قادوها مغربا ومشرقا وكانوا سيوفا بتارة ضـد المستعمرين الأوروبيين والمستبدين الأتراك هؤلاء الذين بدأوا -معا- يشيعون بين الشوام أن القبائل والأمازيغ ليسوا عربا بل عملاء الفرنسـيين لاحـتلال الشام.

- وفي عام **1920** احتلت فرنسا دمشق اثر معركة ميسـلون البطوليـة وكانت تخشى أول ما تخشى أولئك الجزائريين الذين يقودون المجتمع الشـامي دينا وفكرا وسياسة فسعت إلى فصلهم عن هذا المجتمـع، فلجـأت إلى ذات الحيلة التي لجأ إليها المستبد التركي القائم والتي تطبقها في الجزائر.

فكما قالت لهؤلاء الأمازيغ في الجزائر أنكـم لسـتم عربـا وأن العـرب جاؤوكـم مستعمرين مع بني هلال... إلى آخر هذه الأسطوانة، قالت لأهل الشام أن هؤلاء الأمازيغ ليسوا أكثر من برابرة غير عرب جاؤوا إلى بلادكم بقصد احتلالها واستعماركـم وأن فرنسا نفسها تساعدهـم في ذلك وبدأت أجهـزة الدعاية في جيشها المحتل الذي فيه جزائريون مجندون إجباريا، بـث هذه الأقوال والدعايات في صفوف الشوام إشعالا منها للفتنة بينـهم وبـين الجزائريين... غير أن الذي حدث أن الجزائريين والشوام جميعا أعلنوا الثـورة

الكبرى ضد فرنسا عام 1925-1927 بقيادة سلطان الأطرش والأمير عز الدين الجزائري، وكان الجزائريون في الجيش الفرنسي وعلى رأسهم الضابط عطاف يساعدون الثورة السورية بالسلاح وغيره.

ولم يعد سرا أن الأمازيغ في سوريا كانوا جزءا أساسيا ومحركا قويا للنضال القومي العربي، سواء ضد الأتراك أو ضد الفرنسيين أو الإنجليز أو الصهيونية والإمبريالية العالمية، بل إن حزب البعث العربي الاشتراكي الذي يكرهه "الفرانكوفون" وأدعياء الأمازيغية، كان يقوم على أكتاف الكثير من هؤلاء الزواوة المهجرين إلى دمشق بل وصلوا إلى أعلى المراتب في قيادة الحزب والدولة، ومنهم على سبيل المثال رئيس وزراء سوريا في سبعينيات القرن العشرين "عبد الرحمان أحمد خليفاوي" أصيل الأربعاء بني إيراثن كما كان منهم قيادات في الأحزاب الإسلامية ومنهم محمد المبارك أصيل دلس ومن أبناء عمومه الشيخ أبوا يعلى الزواوي كما ذكر في كتابه هذا الذي بين أيدينا كما ليس سرا ما قدمته سوريا ومصر والسعودية وكل العرب للثورة الجزائرية 1954-1962 وهو أمر لم يفعله العرب دولهم وشعوبهم مع الثورة الفيتنامية مثلا!!.

مواقفه وفلسفته

من خلال النصوص التي بين أيدينا يتبين لنا أن للرجل موقفين:

إذ يقول معلقا على خطبة جول كامبون الوالي العام للجزائر في بلدة الأربعاء ناثي إيراثن عام **1891** (قلت لابد من غالب ومغلوب وأن لكل شيء حد ونهاية ثم إن الدولة الحالية التي استولت عليهم تحبهم وتميل بالعطف عليهم وتود أن يتمدنوا تمدنا عصريا) ص **41**.

وهذا موقف يناقض قوله بأن الشيخ الطاهر الجزائري كان معجبا بنظراته السياسية فالشيخ الطاهر الجزائري لم يكن مؤسسا للحركة القومية العربية فحسب بل أنه كان واضحا في علاقته بالدول والمستشرقين الإنجليز وكان أميل للسياسة البريطانية لذلك فإن تلامذته الذين أعلنوا الثورة العربية الكبرى عام **1916** لم يسمحوا لشريف مكة الحسن بن علي سوى بالاتصال مع بريطانيا دون سواها من الحلفاء، وليس من المتوقع أن يعجب طاهر الجزائري الذي لم ترد كلمة فرنسا على لسانه أو قلمه إلا أردفها بـ "لعنها الله" بأفكار رجل يجامل فرنسا لدرجة أنه يكلفه بتثقيف الشباب وأكثر من ذلك فإن كتاب تاريخ الزواوة خاصة في فصوله الأولى المتعلقة بنسب الزواوة وتاريخهم متفق مع أفكار الشيخ الطاهر من أن الزواوة عرب قحطانيون.. ونجد في الصفحة **107** أن الشيخ طاهر يطلب من أبي يعلى أن يحرر رسالة في لسان الزواوة قبل الشروع في تاريخهم ويدله على مراجع تاريخية مثل الديباج المذهب وابن خلكان والسخاوي كما أن واقعة السكن

مع الشيخ طاهر هذه المدة الطويلة لا يمكن أن تتم لو كان بينهما مثل هذا الاختلاف البين في المواقف السياسية وميزة طاهر الجزائري كانت عدم المهادنة.! ثم هناك موقف مهم ورد في الكتاب وهو مطالبة أبو يعلى الزواوي بعصرنة التعليم العربي في الجزائر وإدخال الاقتصاد السياسي والإداري والطب والفلسفة وهذه العصرنة هي التي قام بها الشيخ الطاهر الجزائري في دمشق والشام كله فجرت عليه غضب الأتراك وهذه المطالب بعصرنة التعليم في الجزائر والإصرار على العربية تتفق ليس فقط مع أفكار الشيخ الطاهر بل أيضا مع أفكار الحركة الوطنية الجزائرية وسائر فصائل حركة التحرر القومي العربي منذ مطلع القرن العشرين، فالبربرية زواوية وغير زواوية هي جزء من القومية العربية جنسا وثقافة، دينا وأرضا، ماضيا ومستقبلا.

إذن فإن مواقف الشيخ أبو يعلى الزواوي في نهاية التحليل هي المواقف (العربية الإسلامية) التي أجمع عليها كل رجالات الزواوة (الأمازيغ جميعا) من علماء وساسة منذ قرون ولم يخرج عن هذا الإجماع إلا فئة قليلة ممن أثرت فيهم أجهزة الدعاية الفرنسية. وما عبارته عن خطاب جامبول إلا كلمة مجاملة شاردة اقتضتها ظروف أكثر منها موقفا سياسيا أو ثقافيا، فالموقف السياسي والثقافي تجسد في رفقته لابن باديس في تأسيس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين.

وحدة الوطن

يشير أبو يعلى في مطلع حديثه عن نسب الزواوة إلى اختلاف المؤرخين فيه وأن هذا الاختلاف هو الذي لفت نظره للبحث والتنقيب هل هم عرب

أو بربر ووصل إلى نتائج مرضية بعد بحث استغرق بضعة عشر عامــا، وهــو يحدد موقعهم الجغرافي بدقة إذ يقول في هذا المطلع:

(اختلف المؤرخون في نســب الزواوة، والزواوة قبائل كثيرة مشهـــورة، موطنهم ومساكنهم بشمال أفريقية يجعلهم البحــر الأبيض المتوسط الممتــد من خليج مدينة الجزائر إلى بجاية إحدى عواصمهم وإلى جيجل نصف دائــرة فهؤلاء هم المعروفون والمشهورون بالزواوة) ص 12.

ويقول المهندس وباحث الآثار، المؤرخ العراقي د.أحمد سوسة في كتابه الذي حاربته الصهيونية (العرب واليهود في التــاريخ حقــائق تاريخيــة تظهرهــا المكتشفات الآثارية) ما نصــه: (إن القبائل المعروفة بالبربر التي استوطنــت أراضي شمال أفريقية كانــت تقيم في الأصل في أرض فلســطين إلى جانــب الكنعانيين ثم أخرجت منــها في عهــد الملك داود فيقول المسعودي في ذلك أن أرض البربر كانــت أرض فلسطين من بلاد الشــام وإن ملكهــم كــان جالوت، وهذا الاسم سمة لسائر ملوكهم إلى أن قتل ملكهم جــالوت، فلــم يتملك عليهم بعده ملك، وأنهم انتهوا إلى ديار المغــرب، فانتشــروا هنــاك واختارت البربر سكن الجبل والودية والرمال والدهاس وأطــراف الــبراري والقفار) ص 98

إذن فإن الذين سكنوا الجبل والأودية هم الزواوة بتوافق هذين النصين وإن البربر غير الزواوة سكنوا مناطق أخرى، إذ يقول القديس أوغستين في بعــض كتاباته (لما سألت أهل بونة عنابة من أين أتيتم قالوا أتينا مــن أرض كنعــان) والمعروف أن التوراة لا تتحدث أين ذهب الفلسطينيون بعد قتل داود ملكهم

جالوت أو جليات، فهذه النصوص تجيب عن السؤالين:: تخبر خبرين أين سكن الزواوة أو البربر ومن أين جاءوا؟

ولدينا نصوص أخرى مثل الخريطة التي ذكرها أحمد توفيق المدني في كتابه (تاريخ الجزائر) حول توزيع " القبائل البربرية وموطنها بالقطر الجزائري" فيذكر (في عمالة الجزائر صنهاجة، وفي جبال الجرجرة المسماة ببلاد القبائل الكبرى زواوة، فليسة، قسطولة، أووقنون، فراوسين، بني راثن، بطروم، بني منقلات، عمور، بني يحي، هجر، فتاية) ص **125** طبعة ثانية الجزائر **1984**. وأما محمد علي مادون صاحب كتاب ظهر حديثا بعنوان "عروبة البربر –الأمازيغ، الشلح، القائل، التوارق– الحقيقة المغمورة" فيقول في الصفحة **115** من طبعة دمشق الأولى (فبربر الجهات الشمالية من القالة شرقا إلى إرزا غربا من جبال وشتانة وأدوغ والجرجرة وغالبهم من كتامة في بلاد القبائل الصغرى وزواوة ميلاد القبائل الكبرى).

هذه الكتب التي ذكرتا لم يطلع عليها أو يعلى، كما أن مؤلفيها لم يطلعوا على كتابه هذا... ومع ذلك نلمس دقة الرجل في تحديد موطن الزواوة في منطقة جرجرة.

وورد في كتاب ظهر ونحن نكتب هذا التعليق لمؤلفه د.سعد الدين إبراهيم "تأملات في مسألة الأقليات" ص **86** ما يلي: (والبربر هم جماعة أثنية أصلية في شمال إفريقيا، وكانوا يمثلون أغلبية السكان الأصليين حينما وفدت إليهم جيوش العرب المسلمين في القرن السابع الميلادي، ولأنهم سلاليا ينتمون إلى الأسرة الحامية السامية، والبحر متوسطية التي ينتمي إليها العرب،

ولأن معظم النظريات عن أصولهم ترجع بهم إلى الجزيرة العربية أو الفينيقية، فقد سهل ذلك من عمليات التفاعل والمصاهرة، والتعريب والأسلمة...).

وكنت خلال تجوالي الطويل في العديد من الأقطار العربية قد لاحظت تشابه أسماء الكثير من القرى والبلدات والمناطق في الجزائر وعموم المغرب العربي وفلسطين والجزيرة العربية وبلاد الشام والعراق، مع تشابه أسماء العشائر والقبائل وقد سجلت ذلك في "سفر" أعمل على إنازه بعنوان "بلدانية العرب" وأنا أقول تشابه من باب الحيطة، فالواقع أن هناك تطابق كبير حتى في العادات القديمة جدا (المعروفة قبل الإسلام) فمثلا في الجزائر قرية المعذر وفي فلسطين معذره، وفي الجزائر البويرة وفي فلسطين البويرة، وفي الجزائر زكري وفي فلسطين زكريا، وفي الجزائر عنابة، وفي فلسطين عنابة، وفي الجزائر علمة وفي فلسطين علما.. هل ستقولون هذه أسماء عربية هنا وهناك اخترعها "الهلاليون" الغزاة الاستعماريون المحتلون كما يريد البعض أن يفهمونا، إذن ماذا لو قلت لكم أن في أواسط جبل الشيخ من امتداده الشرقي نحو سوريا جبل اسمه جبل بربر، وجبل آخر من سلسلة جبال تدمر في شمال سورية أيضا اسمه جبل بربر وتسكنه عشائر تمتد حتى العراق تسمى الشاوية أو الشوايا.

وإذا أردتم تشابها آخر.. ففي القبائلية نقول "مقران" عن الرجل الكبير السن والقدر والقيمة والقوة، فأقول أن ما بين الحدود العربية والإيرانية جبل يقال له جبل المقران، وفي فلسطين يقولون عن ذلك الرجل "أمقرّن" أو أنهم يقولون "فلان قرن" أي أنه محنك وقوي ولا احد يستطيع أن يغلبه وهو داهية يفلت من الحصار، وعند أريحا جبل يطل كقرن من الجبل على غور

الأردن، وهو الذي يسميه النصارى جبل التجربة، حيث حاول إبليس إغواء المسيح، ويسميه الفلسطينيون "قرن طل" أي جبل كبير أطل ويكتبها بعضهم متصلة "قرنطل" ولا أظنني أزيد أحدا علما إذا قلت أن معظم أسماء القرى والفلسطينية والعربية المتطابقة مع أسماء القرى والأماكن الجزائرية موجودة في الجزيرة العربية خاصة في منطقة جبال عسير، وقد أوردها الدكتور كمال صليبي الذي نشر بعدة لغات والموسوم "هل جاءت التوراة من الجزيرة العربية؟"

ولا أعتقد أن هذا التطابق في تسمية الأماكن بين جبال جرجرة في الجزائر وكنعان في فلسطين والشام وعسير في الجزيرة العربية، وأسماء القرى والأماكن، إلا إثراء للمدرسة التاريخية التي تقول أن الزواوة والبربر عموما إنما جاءوا من اليمن إلى فلسطين فمصر فصعيدها فالمغرب العربي.. وهو في نفس الوقت إضعاف لتلك المدرسة الاستعمارية التي تحاول أن تلحق كل البربر بمن فيهم الزواوة إلى أوروبا لمجرد أن بعض الأوروبيين في غفلة من الزمان، ساكنوا البربر في بعض مناطقهم.

وهذا الضعف الجغرافي-التاريخي للمدرسة الاستعمارية في كتابة التاريخ يزداد هزالا على هزال، إذا ما قارنا بين القبائل البربرية في المغرب العربي والقبائل العربية في المشرق العربي، وإذا ما قارنا بين اللهجات المشرقية واللهجات الأمازيغية، ثم احتكمنا إلى أقرب اللغات إلى هذه اللهجات جميعا، أي اللغات السامية وخاصة العربية!

شخصيا لست مهتما في أي من الطرفين ذهب إلى الآخر، أهم البربر الذي ذهبوا إلى اليمن، أم العرب الذين جاؤوا إلى الأطلس، فهم عندي كشقي

التمرة، وليس مهما أن تكون "دجلة" الجزائر سميت على نهر دجلة العراق أو النهر هو الذي سمي على نهر الجزائر، فتمر بسكرة كتمر البصرة كلاهما مذاق عربي!

وأبو يعلى الزواوي حين حدد الموقع الجغرافي كان يعرف المدخل إلى التاريخ أيضا... فقد اتصلت أرض المشرق بالمغرب اتصالا طبيعيا فكان من الطبيعي أن يتصل الناس بعضهم، هذا يذهب إلى ذاك فتمتزج السلالات، وتتكون الأمم من هذا الاتصال وهذا التمازج فلماذا ونحن في عصر التجمعات الكبرى، العصر الذي لا تستطيع دولة لوحدها أن تعيش، وقد صار التواصل أكثر إلحاحا، لماذا يراد فصل البربري عن العربي والادعاء للبربري بأن العرب غزاة هلاليون والادعاء للعرب بأن البربر رومان محتلون؟! إنه افتراء على التاريخ.

وحين قلت أن البربر رأس العروبة ورأس القومية العربية، كان ذلك صحيحا، فما داموا من قحطان، فقحطان رأس العرب.

والذي يشجعني على القول أن البربر (فهر قريش) يكون بشكل من الأشكال هو "افريقش" ذلك الشبه إجماع على أن البربر من "كتم" أو "كتامة" وكتامة أو كتم هو اسم مشهور بين العرب في الجزيرة، ولعله في الأصل "قثم" فهناك من العرب ما يقلب القاف إلى كاف والثاء إلى تاء.

إن "كتم" من الأسماء المشهورة في القبائل العربية قديما وحديثا، ومنها عشيرة "الكتوم" الأردنية "وكتمتو" الفلسطينية وآل مكتوم على الشواطئ الشرقية للجزيرة العربية.

وقـــد لاحظت أن بعض العائلات البربرية حتى اليوم تحمل نفـــس ألقـــاب عائلات عربية في الجزيرة والشام، ومنها كما يحضرني اللحظة عائلة "كسوس" وهو اسم تحمله عائلة كبيرة في جنوب الأردن "الكرك".

أما القصيدة التي أوردها رحمه الله ونسبها إلى أحد أبناء ملكيكرب والـــتي تتحدث عن القبائل العربية ومساكنها والتي منها:

ومنا بأرض المغرب جند تعلقوا   إلى بربر حتى أتوا أرض بربـــر

فقد أوردها محمد كرد علي في كتابه خطط الشام ونسبها إلى معد يكـــرب (محمد كرد علي علامة سوري-كردي- تتلمذ على يد الشيخ طاهر الجزائري ويعتبر من مؤسسي الفكر القومي العربي وتولى وزارة التعليم في سورية) وأما المهندس الدكتور أحمد سوسة العلامة العراقي الشهير، فلم يذكر هذه القصيدة فحسب بل أورد في الصفحة **8** من الطبعة السادسة لكتابه المنشور بعدة لغات (العرب واليهود في التاريخ) ما يلي:

(إن القبائل المعروفة بالبربر والتي استوطنت أراضي شمال إفريقيـــا كانـــت تقيـــم في الأصل في فلسطين إلى جانب الكنعانيين ثم أخرجت منها في عهـــد الملك داود. فيقول المسعودي في ذلك أن أراضي البربر كانت أراضي فلسطين في بلاد الشام وان ملكهم جالوت، فلم يتملك عليهم بعده ملك، أنهم انتهوا إلى ديار المغرب فانتشروا هناك واختارت البربر سكن الجبل والأودية والرمال والدهاس وأطراف البراري والهقار). ولست أدري كم يختلف قـــول احمـــد سوسة الذي يعتمد الآثار بصفته عام آثار شهير عن قول القديس أوغستيـــن (وسألت أهل بونة "عنابة" من أين أتيتم فقالوا أتينا من أرض كنعـــان) وكـــم

لف كلاهما عن أبي يعلى الزواوي الذي لم يكن عالما في الآثار كأحمد سوسة ذي قضى **40** عاما وهو يؤلف كتابه هذا وله فضلا عنه حوالي **50** كتابا بعة منها بالإنجليزية.

وحدة التاريخ

في اعتقادي ليس مدهشا أن يكتب أبو يعلى الزواوي تاريخ الزواوة باللغة عربية؛ ذلك أننا لو استثنينا فترة الاحتلال الفرنسي فإننا لا نجد تاريخا كتوبا للبربر بغير العربية بما في ذلك الكتب التي كتبها المؤرخون البربر نفسهم؛ ويبدو لي ذلك معقولا فالثقافة العربية بكل مراحلها سواء قبل لإسلام أو بعده لم تنظر إلى البربر باعتبارهم جنسا أوروبيا مثلا أو جنسا فريقيا محضا بل نظرت إليهم دائما كجزء من الجنس لعربي والثقافة العربية ي مختلف المراحل وظل الأمر كذلك حتى عند الفرنسيين في بدايات الاحتلال ,كان نابليون نفسه يستعمل لفظة عرب حين يتحدث عن الجزائريين عموما.

ولكن أن الاستعمار الفرنسي في الجزائر كان يغير خطابه كلما شعر بالتقدم في السيطرة على الجزائر وصولا إلى أهدافه في إلغاء الشخصية الجزائرية بكل مكوناتها وإلحاقها بفرنسا دون أن تكون جزءا من الشخصية الفرنسية، وعلى ذلك حارب كثيرا وبمختلف الوسائل والأساليب التاريخ الجزائري في مختلف حقبه. وزيف ما استطاع تزييفه ومنع الجزائريين من دراسة تاريخهم المكتوب.

والأسباب واضحة، فالاستعمار الفرنسي هو استعمار استيطاني، مثله في ذلك مثل الاستعمار الأوروبي لكل من الأمريكيتين وأستراليا وجنوب إفريقيا والاستعمار الأوروبي والصهيوني لفلسطين.

فإنه لا استيطان مع التاريخ، فالمستوطن يريد استعمار الأرض، وأن يبيد أصحاب هذه الأرض تماما أو أن يلحقهم به... لذلك أباد الأوروبيون في أمريكا حوالي **30** مليون ممن نسميهم اليوم الهنود الحمر وحطم ثلاث حضارات من حضاراتهم.. أما الأستراليين، فلم تبق منهم سوى بعض القبائل البدائية، وفي جنوب إفريقيا ابتدأت الكفة مع مطلع القرن العشرين ترجح للأفارقة الأصليين الذين لم تبق منهم سوى **25** مليون بعد أن شن الأوروبيون وفي طليعتهم الهولنديون حرب إبادة مستمرة منذ **3** قرون.

لكن المأزق الخطير الذي وقع فيه الاستعمار الاستيطاني الأوروبي والاستعمار عموما هو ما يمكن أن نسميه (بالمأزق العربي).. فقد غزا هذا الاستعمار الجزائر عام **1830** لتكون أول أرض عربية تستعمر، ووجدها متخلفة تقنيا كجزء من التخلف الذي كانت عليه الدولة التركية، وكان الجزائريون مثلهم في ذلك مثل الشوام والعراقيين والليبيين والحجازيين واليمنيين والمصريين يناضلون ضد التخلف التركي واستبداد الأتراك باسم الإسلام. فقد ظهرت حركة القومية العربية في الجزائر في أواخر العشرينات من القرن التاسع عشر، وظهرت هذه الحركة في المشرق العربي في أربعينياته... نعم لقد وجد الاستعمار التخلف في الجزائر، لكنه وجد التاريخ... وجد الحضارة.

ومن المعروف أن الجزائريين غيروا وجهة مقاومتهم للتخلف المتمثل في سلطة الأتراك، نحوٍ مقاومة الغزو الاستعماري الذي استهانت به السلطة التركية المحلية والمركزية في استانبول وأخذوا يبنون دولة المقاومة الفريدة من نوعها، بقيادة الأمير عبد القادر.

وقد انتصر السلاح التقني الجديد على السلاح القديم، ولكن التاريخ الذي وجده الاستعمار الاستيطاني سواء في الجزائر أو في فلسطين لم يستكن، فظل الجزائريون والفلسطينيون يواصلون كفاحهم ونضالهم ولست أدري هل بلا معنى أن يكون الزواوة وسائر البربر عرب كنعانيون من فلسطين!!

لكن الذي أدريه أن تاريخ الجزائريين الذي أراد الاستعماريون الفرنسيون شطبه وتزييفه وتزويره وتجاهله، ظل صافيا وانتصر عام **1962**.

لقد بات واضحا لدى كل من يكتب تاريخ الاستعمار هذه الظاهرة التي لطخت جبين الإنسانية أن الأمة العربية من الجزائر إلى فلسطين مرورا بالصومال وجزر القمر واريتريا ومصر حتى الإسكندرون هي أكثر أمة قاومت الاستعمار، حتى طردته، وها هي تقاوم جيوبه وذيوله وأتباعه.. وكل هذا بفضل التاريخ، الذي تحول على يد ابن خلدون إلى علم وبين في مقدمته فضل هذا العلم كما يشير أبو يعلى نفسه، لكن أبو يعلى يرد على أدعياء " الفهامة" الذين كانوا يساعدون المستعمر في شطب التاريخ الجزائري وشطب اهتمام الجزائريين بالتاريخ فها هو يقول:

(وعلى هذا فالذي حدث لنا والذي نجتهد فيه رد أقوال جمهور من أهل وطننا هذا ممن يظن أنهم من أهل المعرفة فقهاء وطلبة العلم بأن علم التاريخ غير مطلوب وانه قصص وأساطير الأولين كما قد أشرنا في الخطبة أو انه سهل ليس بفن يدرس إلى غير ذلك مما قالوا. ولقد قالوا مثل ما قال الأولون ما ذكر في القرآن وكفى هذا ردا عليهم. ولكن لابد من زيادة بيان للاقتناع والارتداع فنقول: المرأة تلد الرجل طفلا والتاريخ يجعله رجلا..) ص **5**.

إنها لعبارة جد لوذعية أن يقرن أبو يعلى التاريخ بالرجولة.. لقد اختصر في عبارته الكثير من مفهوم الزمن ومفهوم الأخلاق ومفهوم النمو الفزيولوجي والحضاري ويربط أبو يعلى زوايا فهمه لعلم التاريخ ربطا محكما إذ يقول ببراعة الخبير ودقته:

(إن علم التاريخ يزيد في العقل والإيمان ويزيد في العلم والعمل ويورث الشهامة والشجاعة إذ تثير قضاياه ثائرة الحماس في الغيورين ويحرك ما سكن في الخاملين) ص **8**.

وإذا كانت اللغة عند بعض الفرنسيين هي الجنسية كما يقول عضو الأكاديمية الفرنسية "جلبير كونت" في لوموند **15-07-1978** (إن اللغة هي الجنسية نفسها، هي الوطن حيا ومنغما في ذات كل واحد منا) فإن التاريخ، تاريخ أي شعب، هو حضارة ذلك الشعب. وقد ربط أبو يعلى بين اللغة والتاريخ ربطا ناجحا إذ قال: (وقد اعتبره المتأخرون حياة الأمم أو موتها مثل اللغة يقولون لا حياة لأمة مات لسانها وكذلك لا حياة لأمة مات تاريخها) ص **9**.

ومن هنا نفهم بوضوح لماذا حارب الاستعماريون التاريخ واللغة العربية والدين بين الجزائريين وخصوصا بين الزواوة منهم الذين كتبوا تاريخهم بالعربية دون أية لغة عرفوها ومرت بهم عبر القرون.

والملفتُ للنظر أن الزواوة والبربر عموما الذين سعى ويسعى الاستعماريون وأذنابهم لطمس تاريخهم، أن الكتاب الذي حول التاريخ إلى علم هو الكتاب الذي يظهر تاريخهم وهو أول كتاب تاريخ لهم أوليس اسم كتاب ابن خلدون

هو "كتـاب العبر وديوان المبتـدأ والخبر في أيام العرب والعجـم والبربـر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر" والتاريخ لم يكن قبل هذا الكتاب قد تحول إلى "علم" بكل ما تحمله كلمة علم من معنى!

ثم إن البربر وخصوصا الزواوة منهم لهم باع طويل في التأرخـة وكتابـة التاريخ، فقد أورد معجم أعلام الجزائر **29** علما جزائريا معظمهم ممن كتب في التاريـخ وتنتهي أسماؤهم بلقب الزواوي، ومنهم صاحب كتابنا هذا محمد السعيد أبو يعلى وقد قال في صفحة عن كتابنا هذا الذي ننقحه:

(له تاريخ زواوة لا يزال مخطوطا، وها نحن نصحح لصاحب معجم أعـلام الجزائر من صدر الإسلام حتى العصر الحاضر الطبعة الثانية بـيروت **1980** الأستاذ عادل نويهض) ونثبت أن تاريخ الزواوة طبـع. ولا يعـني هـذا أن المؤرخين من الزواوة هم فقط الذين ورد لقب الزواوي في آخـر أسمـائهم، أوليس أحمد بن أحمد أبو العباس الغبريني المؤرخ الشهيد هو من بني غبري بطن من قبائل الأمازيغ، ونشأ في بجاية وتعلم بها وبتونس.. والأمثلة كثيرة لو أردنا أن نورد كتبا بأسماء الزواوة خصوصا والبربر عموما مـن أهـل "التأرخـة" والتاريخ... ومع كل ذلك يراد لهم اليوم أن يكونوا بلا تاريخ، أو أن يقـف تاريخهم عند الوندال والرومان وما إلى ذلك، لا لشيء إلا لأن مصلحة فرنسا الاستعمارية وأتباعها من "قياد" قدامى وجدد تقتضي أن لا يكـون للبربـر تاريخ، ما دام تاريخهم جزء من تاريخ العرب الذين سببوا هم وتاريخهم مأزق الاستعمار!!

لقد كان أبو يعلى الزواوي رحمه الله مدركا لفضل علم التـاريخ وتـاريخ

الزواوة على الخصوص ويعرف أن الذي (يزدري علم التاريخ إن كانت لـه غيرة وحمية، وإن الذي لا يبالي بما قيل فيه، فهو إما جهول أو سفيه، وسيان عنده الحياتان الطيبة والخبيثة، وفي مثل هذا يقال ليس بحي فيرجى، ولا بميت فيرثى، إذا التاريخ كرامة ولا يأبى الكرامة إلا لئيم، ولا يغفل عن أصله إلا زنيم) ص **10**.

ولا أعتقد أن في البربر جميعهم لئيم يأبى الكرامة ولا زنيم يغفل عن أصله الأمازيغي العربي إلا من ارتبطت مصلحته المعاشية بالاستعمار فهذا يقول الجزائريون عن قلة فطنته وهول جريرته (على كرشه يخلي عرشه) ويقول عن بطنته وانعدام كرامته (حشيشة طالبة معيشة) وكلا هذين عند البربر من سفلة الناس، فالبربري لا يخلي عرشه ولا يرضى أن يكون حشيشا أو نخالة!!

ولعلني هنا أذكر بعض الكتب التي ذكرت تاريخ البربر بهذه الثورة أو تلك، أذكرها للإشارة والمثال فقط.

ابن الآبار: كتاب الحلة السيراء، ابن الأثير: الكامل في التاريخ، الإدريسي: نزهة المشتاق في اختراق الأفاق، الأصطخري: المسالك والممالك، البراري: كتاب الجواهر، البغدادي: الفرق بين الفرق، البكري: المغرب في ذكر بلاد افريقية المغرب، البلاذري: فتوح البلدان، التيجاني: رحلة التيجاني، ابن تغري بردي: النُجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ابن حزم الأندلسي: جمهرة أنساب العرب، ابن حماد: أخبار ملوك بني عبيد وسيرهم، الحموي: معجم البلدان، ابن حوقل: صورة الأرض، ابن حيان: المقتبس في أخبار الأندلس، ابن

نطيب: أعمال الأعلام، ابن خلكان: وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، يحي
ن خلدون: بقية الرواد في ذكر ملوك بني عبد الواد، ابن أبي دينار: المـؤنس
أخبار افريقية وتونس، الطبري: تاريخ الأمم والملوك، أبو الفداء: المختصر
تاريخ البشر، مؤلف مجهول: مفاخر البربر وهو مجموع ونشر في الرباط عام
193، اليعقوبي: تاريخه المعروف بتاريخ اليعقوبي، حركات: المغـرب عـبر
ناريخ حتي، تاريخ العرب، كحالة: معجم قبائل العرب، الهمذاني: الإكليل،
شنقيطي: تحفة الألباب في شرح الأنساب، الكعاك: البربر، محمـد شـفيق:
معجم العربي الأمازيغي، الناظوري: المغرب الكبير.

وأما الكتب المشهورة جدا مثل كتاب عبد الرحمان بن خلدون والمسعودي
غيرهما فهي أشهر من أن نشير إليها... أما آخر كتاب صـدر في المشـرق
مربـي فهو بعنوان عروبة البربر الحقيقـة المغمورة الذي أشرنا إليـه وهو
ن منشورات العام 1992.

وهناك كتب أخرى كثيرة بالعربية والفرنسية والإنجليزية تحدثت عن البربر
صورة أو بأخرى وفي عصر ما من العصور، ومنها أمهات كتـب المـؤرخين
لهيرودتس وغيره إلا من الملاحظ أن معظم الذين اهتموا بكتاب تاريخ البربر
م المؤرخون العرب على مدى العصور التاريخية، بينمـا يتحـدد اهتمـام
لأوربيين في عصر الاستعمار فمعظم الكتب التي ألفها الأوربيون عن البربـر
ي من إنتاج الحقبة الاستعمارية وهذا له أكثر من دلالة عند الذين يعقلون.!

وحدة اللغة

يتحدث أبو يعلى الزواوي في كتابه عن التشابه بين اللغة أو اللهجة الزواوية وبين اللهجة أو اللغة في بعض البلدان العربية.. وهو في اعتقادنا أمـــر جـــد منطقي وغير مدهش على الإطلاق.. فاللغة العربية الفصحى لم تولد من الفراغ.. إنها يعرف كل الباحثـــين تجمع بين ثناياها كل اللغات أو اللهجات الساميـــة، فالساميون تطورت لهجاتهم وأصبحت لغات كالسريانية والأراميـــة والعبريـــة والأمازيغية وما إلى ذلك.. وكلها موجودة في القاموس العربي الذي احتـــوى هذه اللغات، حيث احتواها اللسان العربي المبين، ثم وحدها القـــرآن الكـــريم الذي ذكر العديد من اللغويين العرب أنه احتوى ألفاظا بربرية وقد بحثت ذلك بالتفصيـــل في كتاب آخر هو "تاريخ الحـــرف العربي الجريح" –مطارحـــات في فلسفة ومستقبل اللغة– أرجوا أن يصدر قريبا، لذلك لم ينشأ صراع لغوي داخل العرب أو المسلمين.. وهو أمر حاوله ماوتسي تونغ عند توحيد الصـــين في عام **1948** عندما قرر الحزب الشيوعي اعتماد لهجة بكين كلغة رسميـــة للصين، وهكذا فإن اللهجة الأمازيغية موجودة في اللغة العربيـــة وفي قلـــب الجزيرة العربية نفسها.. فإن الجزائريين الزواوة والشاوية لا يتخلفون في كثير عن القبائل اليمنية في جبال ردفان وفي صنعاء عندما يتحدث كل منهم لهجته المحليـــة. وعلى المرء أن يقـــف طويلا عند ظاهرتين أولاهمـــا أنه لا يوجـــد تاريخ أمازيغي مكتوب بالأمازيغية فكله مكتوب بالعربية، باستثناء ما كتـــب بالفرنسية خلال الاحتلال الفرنسي، وثانيهما هذا العدد الهائل مـــن البربـــر

العلماء الذين أسهموا في تطور العربية وتعضيدها كابن أجروم وابن معطي وغيرهما. وكان يجب -ولا يزال- أن تتطور الأمازيغية إلى لغة متكاملة عبر اللغة العربية الأكثر قربا منها.

وقد بدأت ذلك فعلا، حين صارت تكتب بحروف عربية وأنتج العديد من المؤلفين الجزائريين الكثير من الكتب باللغة الأمازيغية المكتوبة بالحروف العربية، وهو أمر جد صحيح ومنطقي فما دامت اللهجة الأمازيغية إحدى اللهجات السامية، فلماذا لا تتطور حروفا ونحوا وصرف عن طريق أقرب اللهجات واللغات السامية إليها، فما هو العيب في ذلك؟ فاللغة الفرنسية لم تتطور عن طريق اللغات السلافية أو اليابانية، بل تطورت عن طريق اللاتينية، الأقرب إليها بل هي أمها فلماذا لا تسلك اللهجة الأمازيغية الطريقة نفسها وتتطور عبر اللغة الأقرب إليها، فكيف إذا كانت هذه اللغة هي أكثر اللغات السامية تطورا وهي الأكثر قربا من الأمازيغية.. أعني اللغة العربية وهنا نأتي بمثالين:

1- اختارت بعض الشعوب الإسلامية مثل الأكراد، الفرس، الأورد. كتابة لغتهم عبر الحرف العربي رغم أن هذه اللغات لا تمت بصلة إلى اللغات السامية فضلا عن العربية، والروابط بين هذه القوميات والعرب هي روابط دينية وليست قومية.. وهذه اللغات تتطور الآن بسبب أن الحرف العربي هو حرف القرآن الكريم وبالتالي فلم يشعر المواطن بفصل كبير على الأقل في الشكل بين لغة يومه ولغة ربه.. وحين اختارت تركيا منذ عهد كمال أتاتورك الحرف اللاتيني بعد أن صدق الرجل أن الحرف العربي سبب

التخلف، واجهت تركيا وتواجه العديد من المشكلات "التطـرف الـديني" ومشكلات الهوية والثقافة وهي مهددة بالتمزيق.

2- اليهود أنفسهـم، والذين تجمدت لغتهم العبرية منذ ألفي سنة تقريبا، وتحولت إلى لغة "الحيدر" و"الكنيس" وحين صمموا علـى تحويـل الديانـة اليهودية إلى قومية عبرية ورفع آحاد هاعام شعاره المعروف آخر يهودي وأول عبري. رجعوا إلى لغتهم العبرية "المتجمدة" وأخذوا يطورونها وكان مـنطقهم معقولا، فهذه اللغة هي إحدى اللغات السامية وبعثها وتطويرها لابد أن يـتم عن طريق هذه اللغات الأقرب إليها، وأكثر اللغات السامية تطورا هي اللغـة العربية، لذلك فهم يطورون عبرانيتهم هذه عن طريق اللغة العربية، ولم يقولوا أنها غير علمية ولغة غير تكنولوجية وما إلى ذلك، وهم الذين يعرفون لغـات الأرض كلها باعتبارها لغاتهم القومية!!

وهكذا نستنتج أن الذي أوقف تطور اللغة الأمازيغيـة هـو الاسـتعمار الفرنسي نفسه، لأنه يعادي الأمازيغية ويحاربها كما يعادي العربية ويحاربها، لأنه أصلا ضد الجزائريين كلهم حتى ولو كانوا في قلب أثينا.. إنه فقط يريد أرض الجزائريـين. أما الجزائريـين أنفسهـم سواء كانوا عربا أم أمازيغا أم هبطوا من السمـاء.. فإلى المحرقة.. أليس هو الذي قتل ما لا يقل عن عشرة ملايين جزائري في حرب استمرت **130** سنة.

ويجيء الآن عبر الأكاديمية البربرية ليضحك على عقولنا ويدعي أنه يسعـى لتطوير لغتنا البربرية، بل يريد أن يصطنع لنا قومية معادية للقومية العربية حتى تظل النيران مشتعلة في جبال الأطلس إلى الأبد، وهو يأكل خيراتنا وثرواتنا..

ويريد أن يصطنع لنا حروفا لاتينية ويطور لغتنا عبر لاتينيته، بعد أن منعنا 130 سنة من تعلم الحرف اللاتيني. إننا نقول له: وفر جهودك فنحن كبربر وأمازيغ نعرف مصالحنا وثقافتنا جيدا فلا تتدخل في شؤوننا..

فإذا كانت اللغة كما يقول باحثوك الفرنسيون هي الجنسية، فإن أقرب لغة إلى لغتنا هي العربية وأقرب جنسية إلى جنسيتنا هي الجنسية العربية، فدعنا نحل مشاكلنا مع العرب، إذا كانت هناك مشاكل دون تدخل منك.. فنحن لا نريد مساعدتك!!

وعلى كل الأحوال فإن التشابه اللغوي بين العرب والأمازيغ ليس فقط في اللغة كمفردات وتسميات وحسب بل أنه في الخط أيضا فالخط الأمازيغي "التيفيناغ" هو جزء من الخط العربي المسند القديم، وتطور "التيفيناغ" كان لابد أن يتم بذات الطريقة التي تطور بها المسند، وصولا إلى الخط العربي الحالي "الجزم" أي أن أجدادنا الذين كتبوا الأمازيغية بالحرف العربي استفادوا بذكاء من جهود قرون طويلة، وهناك عشرات الكتب التي تبحث في تاريخ الخطوط يمكن الرجوع إليها، بل إن مؤرخين فرنسيين مثل لوبون وجوليان نصوا على أن التيفيناغ هو شكل من أشكال الخط العربي القديم.

وحدة المزاج

ولعل أبو يعلى الزواوي قد أدرك تماما أبعاد التطابق الثقافي بين العرب والبربر، فبعد أن أبرز التطابق في السلالة وفي النظام الاجتماعي وفي الدين، وفي اللغة –وقد أتينا نحن بشواهد لاحقة أثبتت ما ذهب إليه وأكدته– فإنه

ينتقـل بنـا إلى تطابق آخر وهو تطابق العـادات والتقاليـد، أي تطـابق الأخلاق والطباع والسيكولوجية الجماعية، فما يعتبر محمودا عند الزواوة نجده محمودا عند العرب وما هو مذموم عند هؤلاء مذموم وعند أولائك.

بل يبـدي أبو يعلى الزواوي من العلمية والفهم العميق للمجتمع البشري ما لا نجده عند بعض الباحثين الأوروبيين، فهو لا يعني بالتطابق نسخا مكررة أو يستخـرج نسخا مشوهة، فثمة اختلافات هي كاختـلاف خنصرك هـن بنصرك أو كاختلافك عن توأمك وهذه هي الشعوب فمن قـال أن أهـالي الألزاس والبريتان نسخة مكررة عن أهالي مرسيليا..

يقول أبو يعلى في الصفحة **26** (فالزواوة إذن عرب مستعربة وعرب عربا بأصلهم المتقدم ثم أن كثيرا من الأخلاق والعادات والطباع في البربر متماثلـة متمازجة بطبائع العرب كاتخاذ البيوت من الشعر والوبر، والطـين والحجـر، والظعن والإقامة، وكسب الشاء، وحلق الـرأس، والشـجاعة، والكـرم، والقرى، والانتجاع والارتياد، وركوب الخيل وكسب النعم، الإبل والبقـر والغنم إلى غير ذلك مما لا يكاد يستقرأ وكلها أحكام الاستعراب والله يحكـم لا معقب لحكمه وهو جل شأنه سريع الحساب).

وإذا طبقنا هنا القاعدة العلمية التي تقول: "إن أخـلاق النـاس تنتجهـا أوضاعهم الاقتصادية" فإن الوضع الثقافي والأخلاقي للبربر الأمازيغ المتشـابه (كل هذا التشابه) مع الوضع الأخلاقي والثقافي للعرب لا يمكن أن يكون قد نتج عن حالة استعمارية، بل هو ناتج بالضرورة عن تشابه أو تطابق اقتصادي، فالبربر والعرب عموما هم أصحاب نظام اقتصادي واحد سماتـه الأساسـية

الرعي والزراعة والتجارة وقد وقفوا على أبواب التصنيع في بغداد والقيروان ودمشق وتلمسان وفاس والقاهرة.. والاستعمار يقوم أصلا على "التصادم الاقتصادي".

غير أننا نجد في التاريخ العربي هنا نقطة صدام بين الدولة والأمة، فقد كانت الأمة عربية والدولة إسلامية، إذ سيطرت على الدولة العربية فئات إسلامية من خارج الأمة العربية كالفرس والديلم والمماليك والأتراك، فتوقف التصنيع في بدايته وبدأت الغزوات المغولية والصليبية وبدأت الأمة العربية تتقهقر في المشرق والمغرب على حد سواء، فإذا كانتا الغزوات الصليبية قد بدأت في المشرق وانتهت في المغرب فإن الاستعمار الاستيطاني بدأ قي الجزائر ليصل إلى فلسطين.

لقد أسهم ذلك العراك بين الدولة والأمة في تقهقر الطرفين: الأمة العربية والدولة الإسلامية، تقهقرا اقتصاديا وثقافيا مريعا، وهنا نجد التشابه بين المشرق والمغرب في حالة التقهقر كما وجدناه في حالة التقدم.. فهما دائما في وضع اقتصادي واحد ووضع ثقافي واحد.. لذلك فالأخلاق واحدة.

ولعلنا هنا نفهم أن أحد أسباب انهيار الدولة العربية الإسلامية هو ذلك التصادم الاقتصادي الذي نشأ تحت ستار الوحدة الإيديولوجية "الإسلامية" فحين سيطرت الأعراق غير العربية على هذه الدولة باسم الدين وبدأت تبدوا وكأنها "قومية استعمارية" بدءا من البرامكة وانتهاء بالشكل الأوضح لهذا التصادم على يد الأتراك الطورانيين. فتطور الصراع داخل الدولة العثمانية وصار صراعا قوميا واضحا بين العرب والأتراك وبدأ العرب يغيرون مفهومهم

للدولة.. ولعل البداية كانت هنا في جزائرنا منذ عشرينيات القـرن التاسـع عشر وامتدت إلى لبنان ثم تطورت على يد الأمير عبد القادر خلال المقاومـة الباسلة التي أبداها شعبنا ضد الاحتلال الفرنسي وأخذ هذا المفهوم، مفهـوم الدولة العربية شكله المتبلور عام **1877** حين انتخب زعماء المشارقة الأمـير عبد القـادر ليؤسس دولة عربية مسلحة مستقلة عن تركيا المسلمة يساعده في ذلك أولئك الرجال البربر الذين ساندوه وساعدوه بسـيوفهم في حماية نصارى الشام العرب من المسلمين غير العرب (أتراك وأكراد) الذين دفعـت بهم تركيا وفرنسا وبريطانيا إلى أتون الحرب الأهلية عام **1860**، ولا يمكـن للبربر أن يقودوا حركة التحرير القومي العربـي في المشرق العـربي سـواء بزعامة الأمير عبد القادر أو غيره لو نظر إليهم المشارقة أو نظروا هم لأنفسهم ككيـان آخر خـارج التشكيل العربي سواء من الناحية السلالية العرقيـة أو من الناحية الاقتصاديـة أو من الناحية الدينيـة والاجتماعيـة التنظيميـة أو من ناحية الأخلاق.

ويبدوا لي في هذا الفصل المخصص لمحامد الزواوة وخصائصهم أن الشيـخ أبو يعلى قد فلت من فخ وقـع ويقع فيه غيره الكثير من العـرب والعجـم والـروم. ألا وهو فخ المقارنة بين الشعوب والأمم وتعداد مناقب هذا الشعب وإظهارها.. والحال هو أن كل شعوب الأرض متساوية وكلها أصيلة، وكلها تحمل ذاتٍ المناقب والمحامد فليس هناك شعب يقول عن نفسه أنه بخيل مثـلا أو جبان. فكل شعوب الأرض هي بنظر نفسها عظيمة وهذه هي صفة الإنسان السوي الصحيح، فالإنسان مهما كان فردا أو شعب فاليهودي لا يعتبر نفسه

بخيلا وكذلك الاسكتلندي، سواء الفرد منهم أو الشعب، بل الآخرون هم الذين يرون فيه ذلك ولعل مسألة ذكر نقائص الشعوب دون محامدها هي أمر تجنبته الثقافة العربية الإسلامية وحضارها، فليس في هذه الحضارة كتاب مثل رواية "شكسبير" الانجليزي الموسومة "تاجر البندقية" التي تصف اليهودي بالبخيل وليس هناك كاتب عربي مثل الفرنسي "موباسان" الذي يصف البربر الجزائريين بالهمجية، طبعا يشير لهم كعرب، فلم تكن في وقته قد بدأت سياسة تفتيت الجزائريين.

ولأن أمر الحضارة والثقافة العربية كذلك، فإن شيخنا الزواوي فلت من هذا الفخ الذي يقود إلى الانغلاق، حتى يتحول الاعتزال القومي إلى تعصب واستعلاء! والانغلاق يؤدي إلى الجهل، والجهل إلى الأنانية، والأنانية إلى الفناء! فلت أبو يعلى الزواوي وعدّد (من خلال الحديث النبوي الشريف) الفضائل التي يتمتع بها الروم وهي ذات الفضائل التي يمكن أن يتمتع بها أي شعب آخر، لأنها موجودة في كل شعب وفي كل فرد فإن صارت هي الغالبة في نفس الفرد ارتفع شأنه بين الأفراد، وما ينطبق على الفرد بين الأفراد ينطبق على الشعب بين الشعوب ولكن الاستعمار خبيث فالرغبة في استعباد الآخر وظلمه صفة منحطة وخبيثة في الفرد وكذلك في الشعب.. ولأن الاستعمار الفرنسي "وكل الاستعمار" هو أبشع وأحط الصفات، راح من أجل أن يطيل عمره ويواصل استعباد الشعوب، يبحث عن نقائص هذه الشعوب وتناقضاها، ويركز هذه النقائص في نفسية أفرادها، فالعرب كل العرب، والفيتناميون كل الفيتناميين، والأفارقة كل الأفارقة، والألمان كل الألمان،

والإنجليز كل الإنجليز، هم أمام الفرنسي همج متخلفون، متوحشون، أدمغتهم لا تشتغل ومعاقون فسيولوجيا، وليسوا لطفاء المعشر، وليس لديهم لغة جميلة معبرة أو أدب رفيع، فكلنا يذكر مثلا الصـــراع بـــين الفرنســـية والألمانيـــة والإنجليزية وكان الفرنسيون يصفون اللغتين الأخريين كما شعبيهما بأقـــذع الأوصاف وأقبحها.. علما بأن اللغات الثلاث والشعـــوب الثلاث ذات أصل لاتيني واحد! وقد تمكنت الألمانية من الانتصـــار في صراعها على الفرنســـية، أما الإنجليزية فاخترقت الفرنسية وها هي تكاد تحتويها حيث اشتهرت الألمانية كلغة أدب وفلسفة واشتهرت الإنجليزية كلغة علم وتجارة.

ومن أجل أن يطيل الاستعمار عمره بين ظهرانينا راح يفصل بين العـــرب والبربر بما شاء له من أساليب الفرقة والفصل ثم يقيم بينهم نوعا من التفاضل والتفاخر فالتنابز فالضغائن فالأحقاد فالحروب.. وهذا ما يجعله هـــو الســـيد الذي يسود الطرفيـــن دائما وأبدا.. فلذلك ألفت كتب وقيلت أطروحـــات في هذه المفاضلات السخيفة بين العرب والبربر فهناك من يقول أن العربي هو الأكرم فينبري آخر ويقول أن العربي كسول لا يعمل لأنه ابن الصحراء فيأتي آخر ليقول أن البربري لا يعرف سوى الالتفاف بالبرنوس وتدخين الحشيش.. ولو أراد الواحد أن يعدد الكتب والمقالات التي أقامت هذا النوع المنحـــــط من "الثقافة" لوضع فهرسا طويلا خاصة خلال القرنين التاسع عشر والعشرين، ومن الملاحَظ أن الكتب والمقالات الفرنســـية تشكل العدد الأكبر في هـــذا الفهرس الذي لا يشرف الإنسان فـــردا أو شعوبا ولا يشرف اللغة الفرنسية نفسها بل يحط من قدرها، والحقيقة أن الذين يفعلون ذلـــك إنمـــا يخـــدعون

شعوبهم، فموباسان وفيكتور هيجو وألبير كامو وغيرهم من الفرنسيين الـذين احتقروا الجزائريين بربرا وعربا مثلهم مثل شكسبير الإنجليزي الذي احتقـر اليهود وروديارد كيلنغ الذي احتقر الهنود، مثلهم مثل اليهودي في التـوراة الذي احتقر كل شعوب الأرض.. إنما هؤلاء جميعا يحتقرون أنفسهم ويضللون شعوبهم وينقلون الاعتزاز الوطني والقومي إلى الانغلاق عبر الاستهلاك وصولا إلى الأنانية والفناء.

وهكذا فإن شيخنا كان متحصنا بثقافته العربية الإسلامية التي لا تقبل الميز بين الشعوب، فذكر محامد الزواوة كجزء من محامد العرب، وذكـر محامـد العرب كجزء من محامد الزواوة، وذكر الجميع بأن للروم وللأعاجم محامدهم، وهذه صفة الإنسان "الأممي" بالمعنى الواسع والحقيقي.. فمهما اختلفنا اليـوم في النظرة إلى الإسلام كفلسفة أو دين فإن الحقيقة تظل هي الحقيقة فالإسلام هو أول ديـن أممي يعلن صراحة عن أمميته وأن لا فرق بين البشر أبيضـهم وأسودهم عربهم وعجمهم.. فهذه هي الحقيقة حتى وإن لم يطبقها المسلمون، سواء كان الإسلام دينا "اخترعه" محمد أو "أنزل" من السماء.. وسواء كـان "تقدميا" أو "رجعيا" فالحقيقة تظل هي الحقيقة، والإنسان الأممي والدين الأممي لا يمكن أن يكون إرهابيا.

والواقع أن الاستعمار وسيلته الأولى هي احتقار الشعوب وإقناعها بأنها أقل شأنا منه، فإذا كان الاستعمار الفرنسي يضم كل عمل عربي بالرداءة خدمـة عرب فإن المستعْبدين الأتراك كانوا يقولون: (إن حافر حصان التركي أفضل من أي بني عربي) ولا زال الإنجليزي حتى اليـوم يعتـبر الهنـدي بقـرة..،

والاستعمار يحتقر الشعوب ويسعى لأن يقتنع هي بحضارتها ثم يعمد في نفس الوقت إلى أن تحتقر فئات الشعب الواحد بعضها بعضا ويشجع على ذلك فيقوم رجاله من العساكر والإداريين والمبشرين بنشر هذه الأفكار الخبيثة، فيقولون للقبائل أنكم أفضل من الشاوية وأكثر تمدنا وأن الشاوي بغل همجي، ويقولون للشاوية أن القبائل عنصريين يأكلون الخنزير ولا يغارون على شرفهم.. ثم يعمدون إلى تحريض هؤلاء ضد العرب والعرب ضد بعضهم وضد هؤلاء.

وليس الاستعمار الفرنسي وحده الذي يفعل ذلك بل الاستعمار الإنجليزي أيضا، ففي الخليج العربي والعراق مثلا حرض السنة ضد الشيعة والأكراد ضد العرب.. بل وصل الأمر في بلاد الشام إلى تحريض أهل المدن على أهل الريف كما في مصر بحري ضد الصعيد.. بل وفي منطقة الزواوة موضوع هذا الكتاب نجد الاستعمار قد دق الأسافين بين زواوة بجاية وزواوة تيزي وزو بعد قبائلي ومرابط.

وللأسف الشديد فإن مثل هذه السخافات التي تخطتها الشعوب جميعا.. وهي تصنع مجد الإنسان على وجه هذه المعمورة، تجد لها عند بعض أدعياء الثقافة والتقدمية والعصرنة من الجزائريين أذانا صاغية، فهناك بعض منهم ينضم إلى الأكاديمية البربرية في باريس وهو يعلم أهدافها الخبيثة وبعض منهم ينضم إلى معهد العالم العربي فيها وهو يعلم أهدافه الخبيثة بل هناك نفر ينضم إلى المؤسستين في نفس الوقت وينتج إنتاجا أقل ما يمكن وصفه به أنه إنتاج يخدم أفكارا تجاوزتها البشرية فلم تعد عصرانية ولم تعد تقدمية ولم تعد

ثقافية، فالذي يسعى لأن يقتتل الجزائريون تحت يافطة عرب-بربر كالذي يسعى لاقتتالهم تحت يافطة مسلمون-نصارى أو يافطة عصرانيون-أصوليون، فقد اقتتل اللبنانيون مدة 15 سنة تحت هذه اليافطات وكانت النتيجة تدمير لبنان بكل فئاته.

وهذا بالضبط ما يراد بالجزائر، وبالطبع لن يشرف البربر أو العرب في الجزائر أن يتقاتلوا تحت أي عنوان كان فضلا عن هذا العنوان العنصري البغيض. والحقيقة أن ما يراد بالجزائر هو ما يراد بالوطن العربي كله، فالحضارة الأوروبية التي بدأت تدخل مرحلة التدهور بعد أن وصلت قمة الهرم، أخذت تخشى نمو الحضارة العربية من جديد سواء بثوب عصراني حداثي علماني أو بثوب إسلامي سلفي أو متجدد. فمن الواضح أن العرب استجابوا للتحدي وتحررت أوطانهم، وقد سجل لهم التاريخ أنهم أكثر شعوب الأرض مقاومة للظاهرة الاستعمارية.. وكانت الجزائر على رأس هذه الاستجابة للتحدي.. لذلك فالحضارة الأوروبية وبدوافع شتى لا تخلوا من صليبية أيضا تسعى لأن تمنع نمو العرب، فبعد أن فتتهم إلى أكثر من 23 دولة واقتطعت أجزاء منهم ومن أراضيهم أعطتها لتركيا وإيران وإثيوبيا وتترانيا وحتى أسبانيا وأقامت إسرائيل فإنها تسعى لتفتيتهم إلى قوميات متناحرة متقاتلة فالشاوية في قتال مع القبائل وهؤلاء مع الشلوح وفي مصر الصعايدة مع النوبيين والمسلمين مع الأقباط، والعرب في لبنان مع الفينيقيين وهكذا دواليك. إذ أن الاستعمار يخلق ثقافات متضادة المزاج تمهيدا للحروب الأهلية.

وفي اعتقادي أن الزواوي في حديثه عن الصفات السيسيولوجية والعادات الاجتماعية للزواوة ومقارنتها مع صفات وعادات العرب وضع يده على نقطة مهمة وهي وحدة المزاج البربري-العربي، وهي وحدة لا نكاد نجدها مع الشعوب المسلمة الأخرى فالمزاج الفارسي مثلا يختلف اختلافا بينا عن المزاج العرب حتى أن الدول الإسلامية التي قامت في المنطقة وكانت ذات مزاج فارسي لم تعمر طويلا سواء في المغرب أو في المشرق فالدولة الفاطمية مثلا أقصر عمرا من الدولة الأموية والدولة العباسية بينما عمرت الدولة الأموية وهي أكثر الدول الإسلامية عروبة عمرت في المغرب العربي أكثر من **700** عام، وينطبق الأمر نفسه على الأتراك الذين لم تعمر دولتهم في المشرق أكثر من خمسمائة عام لنكتشف بعد ذلك أن التركي والعربي رغم أن الإسلام -السني- يجمع بينهما إلا انهما لا يملكان نفس المزاج، وينطبق هذا على الأكراد أيضا.

وبهذه الملاحظة الذكية يكون أبو يعلى قد فسر لنا -ربما من حيث لا يقصد- لماذا كان البربر والعرب يملكان تاريخا واحدا.

وحدة العشيرة

كثيرا ما تتشابه أسماء العشائر والعائلات والأماكن ما بين المشرق والمغرب ؛وهو تشابه ليس من الممكن أن يكون من صنع (الاستعمار العربي الهلالي) كما يورد هؤلاء الذين لا يضمرون للجزائر سوى الشر والذين يرغبون في إعادة احتلالها، وهم الذين ظلوا يعيدون احتلالها طوال **130** سنة تقريبا! لأننا في هذه الحالة لابد أن نقول أن الأسماء البربرية في المشرق العربي هي نتيجة

(استعمار بربري) وهو أمر لا يقول به أحد ولن يصدقه أحد، لأنه أيا من كتب التاريخ (على اختلاف مدارسها) لم تذكر مثل هذا الاستعمار البربري للمشرق، إذن فإن الأمر المنطقي هو العلاقة "القديمة جدا والمتواصلة والمتساوية" بين الجهتين المشرق والمغرب، إذ أننا نجد بعد تشابه الأماكن تشابها في العشائر في علاقة تاريخية ثقافية قديمة متطابقة.

وهذه العلاقة وحدها التي يمكن أن تفسر لنا لماذا كان أبوليوس يعبد آلهة المصريين ولماذا عبد البربر آلهة الفينقيين، ولماذا كان البربر ضمن فراعنة مصر والذين كانت تتبعهم الشام والجزيرة العربة، ولماذا جوهر الصقلي البربري هو الذي بنى القاهرة المصرية ولماذا طارق بن زياد هو قائد الجيش العربي الذي فتح إسبانيا... وهي التي تفسر لنا لماذا لم تنتشر المسيحية انتشارا واسعا بين البربر رغم طول القرون بينما اعتنقوا بشكل شامل الإسلام العربي في أقل من أربعين سنة.. إنه لولا تلك العلاقات القديمة والمتواصلة والمتساوية لما أمكن للعرب إقناع البربر بالإسلام، في الوقت الذي عجزت فيه أوروبا عن إقناعهم بالمسيحية وهذه العلاقة القديمة المتواصلة والمتساوية والتشابه العشائري يفسرها النظام الاجتماعي العشائري القبلي بين البربر والعرب ويقول في ذلك آخر بحث صدر في الموضوع وهو بحث الدكتور سعد الدين إبراهيم، الذي سبقت الإشارة إليه، يقول في صفحة 87 (والتنظيم الاجتماعي للبربر لم يختلف كثيرا عن مثيله بين العرب حيث يتمحور حول القبيلة والعشيرة، ومن البربر من استوطن واحترف الزراعة منذ قديم الأزل. ومن قبائلهم من احترف الرعي وعاش حياة البداوة... وقد حاولت فرنسا في أثناء احتلالها

لأقطار المغرب، أن تحدث الفرقة بين العرب والبربر ولكن الجماعتين قاومتا تلك المحاولة معا بشدة وحسم. كما اشترك العرب والبربر بالتساوي في النضال ضد الاستعمار الفرنسي في كل بلاد المغرب)

ولعلنا نلاحظ هنا أن فرنسا حاولت "تأبيد النظام الاجتماعي العشائري في منطقة القبائل بقصد منع تطور المنطقة، وحصدت غير ما كانت تتوخى، إذ أنها بذلك "حافظت" دون أن ترغب، على التشابه بين هذا النظام البربري مع شقيقه العربي سواء في الجزائر أو المغرب العرب أو في الوطن العربي عموما. كما نلاحظ هنا أن الوطنية ومفهوم الوطن عند البربر مر بنفس المراحل التي مر بها عند العرب من فبلية وعشيرة تتنقل في عالم البداوة إلى أن تتوطن في عالم الزراعة وتبدأ رحلة الحضارة والدخول في التاريخ.

كما نلاحظ أن بعض الكتب الصادرة بالفرنسية أعقاب **1988** وهي تسعى لتشويه المفهوم الوطني لدى الجزائريين بتشويه تاريخ الثورة الجزائرية والحركة الوطنية الجزائرية قبلها تحاول أن تدق أسافين بين الجزائريين عربا وبربرا، فيقول بعضها أن البربر هم صانعوا حركة النضال الجزائري ضد الاستعمار، وأخرى تقول أن العرب هم الذين فعلوا ذلك.. وحقيقة الحال أن الجزائريين كل الجزائريين عربهم وبربرهم قاموا معا ضد الغزوات الاستعمارية كائنا ما كان مصدرها. وذلك انطلاقا من وحدة المزاج ووحدة الوطن ووحدة النظام الاُجتماعي العشائري الذي يشبه شقيقه في المشرق العربي عبر كل مراحل تطوره.

والقضاء البدوي أو العرف الذي تعمل فيه العشائر في كل مكان من الأردن والعراق وسورية والجزيرة العربية ومصر لا يختلف كثيرا أو قليلا عن القضاء المعمول به في جبال جرجرة سواء تيزي وزو أو بجاية أو حتى التوارق، فنظام "الجماعة" هو ذاته في المشرق والمغرب وهو على كل حال يستحق الدراسة المفصلة، ولعل التشابه ليس فقط في أسلوبه، بل وفي هدفه، ذلك أنه يهدف في جرجرة وعسير وردفان إلى إيجاد نوع من التناغم بين القوانين التي كانت سائدة قل الإسلام والشريعة الإسلامية نفسها دون إحداث خلل كبير في البنية الاجتماعية وهذا يدل على عبقرية المجتمع العربي في كل مكان من المشرق والمغرب، فالإسلام كما هو معروف أكد في تشريعه القرآني كثيرا من القوانين والعادات التي كانت قبله وطور بعضها وألغى البعض الآخر وحاول أن يطور النظام القبلي برمته، فمن جهة يقر العشائرية والقبلية (وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا) ومن جهة يقيم الدولة على أسس إيديولوجية وهي الدين، أي أن هناك محاولة واضحة للعبور بالمجتمع من مرحلة العشائرية إلى القومية إلى الأممية عبورا سلسا وهادئا دون صراع قبلي أو عرقي.

وهكذا نجد أن مهمة القضاء البدوي في المشرق والمغرب هي نزع فتيل هذه الصراعات وتطويع القوانين القديمة مع الشريعة الجديدة، ونلاحظ هنا أن القوانين القديمة متشابهة فالبربر يتشددون كما يشير أبو يعلى الزواوي في قضايا الجنس وكذلك البدو في الجزيرة والشام.. وأي دارس لمسألة تطور مفهوم الجنس عند العرب –وهناك كتب هامة تناولت هذا الموضوع ومنها كتاب الزواج عند العرب– يجد أن المجتمع في جرجرة وصحراء الجزائر

والمشرق العربي يحمل نفس المفاهيم زمر بنفس التطورات، وهذا لا يمكن أن يتأتى من علاقة استعمارية أو علاقة عداوة، فإن اختلاف ابن الأطلس عن ابن ردفان هو لا يعدو اختلاف بطنك عن ظهرك فكلاهما أنت!!

وفي اعتقادي أن هذه العلاقة ناجمة عن أن الإنسان هو نفسه في الطرفين، فالعشائر القديمة كما العشائر الحديثة هي ذاتها.. وقد أورد محمد علي مادون في كتابه جدولا بأسماء هذه العشائر والقبائل في المشرق والمغرب، وأعتقد أن كل مؤرخي أوروبا كائنا من كانوا لا يستطيعون المزايدة على العرب (في المشرق أو في المغرب) بموضوعة الأنساب، فعلم الأنساب هو علم عربي مائة بالمائة، لم تهتم به أمة كما اهتموا..

ولعلي أود هنا الإدلاء بملاحظة تتعلق بقول البعض أن في داخل التنظيم العشائري للبربر عادات لا تتفق مع الإسلام وهي أقرب إلى المسيحية أو الوثنية. وهذه العادات التي يركز عليها مؤرخو الاستعمار تؤكد في نظري القاعدة ولا تنفيها، كما يرغبون! فحتى اللحظة التي نعيشها في هذا القرن، هناك عادات لدى القبائل والعشائر العربية في نجد وعسير وحضرموت وعمان والعراق والشام لا تتفق مع الإسلام، لكنها لم تعني لنفس الباحثين أن تلك القبائل الشامية أو اليمانية أو العراقية أنها قبائل غير عربية؟! ومن هذه العادات وشم النساء وأشكال الوشم، فهي تتم لدى نساء المشرق والمغرب بنفس الطريقة وبنفس الأشكال.

ويرجع بقاء هذه العادات (وبالتالي عدم فهمها أو محاولة تزييفها من قبل المدرسة الاستعمارية في كتابة التاريخ) إلى أن الإسلام أدخل النظام

الاجتماعي العشائري نفسه في صلب عملية " الأسلمة" وهذا النظام هو الذي تولى مهمة تنحية الشوائب، فإن كانت القبيلة مثلا تعبد الشجرة فإن الإسلام رفض ألوهية الشجرة.. لكنه أعطاها شيئا من القداسة والاحترام.. "كالقسم بالتين والزيتون" وتولى النظام الاجتماعي نفسه عملية التفريق بين الألوهية والقداسة وهكذا هبوطا إلى أبسط الحالات الاجتماعية اليومية وأعقدها.. فكم هو الطلاق سهل في الإسلام والعشيرة شكلا وكم هو معقد صعب مضمونا وتنفيذا.. إن ذلك كله نظام اجتماعي عربي لا يملكه أي تشكيل قومي في أوروبا سكسونيا أو غير ساكسوني، وهو متشابه في جبل ردفان وجبل جرجرة.

ولعل ما يفسر كل ذلك أيضا هو أن الحضارة العربية، والبربر جزء مؤسس فيها تبدي اهتماما واسعا بالإنسان ونظام المجتمع العشائري.. وهناك مئات الكتب.. لكنها لا تبدي اهتماما بالطوائف والإثنيات.. فليس في الحضارة العربية سوى عدد ضئيل جدا من الكتب التي تهتم بالإثنيات ولعل في طليعتها كتاب "الملل والنحل" فالفكر الإسلامي باعتباره نتاج تفاعلات فكر قومي قديم تطور من مفهوم العشائرية إلى الوطنية فالقومية إلى الأممية، لم يكن ينفي أو يلغي وجود الطوائف والإثنيات داخل التشكيل القومي للأمة العربية لكنه يركز على تطويرها نحو فكرته الأممية عبر تماسكها الأصلي "كأرومة واحدة" ونعتقد انه نجح في ذلك نجاحا يستحق الدراسة.. فقد أرجع معظم العرب مشرقا ومغربا إلى جد واحد من جهة واعتنق معظمهم دينا واحدا على مذهب واحد تقريبا فمعظم العرب ومنهم البربر مسلمون سنة،

فحوالي **80 %** من العرب كانوا عام **1990** يدينون بالإسلام على المذهب السني. ويدخل البربر في هذه الأغلبية سواء لجهة الدين أو المذهب، فمعظم البربر هم مسلمون سنة والملاحظ أن نسبة الشيعة القليلة لدى المسلمين العرب هي مرتفعة لدى المسلمين غير العرب.

وسؤالي الآن إلى كل محاولي زراعة الفرقة وإشاعة العنصرية ولبغضاء ألا يعني هذا التطابق العشائري والديني والمذهبي بين العرب والبربر في المغرب العربي -والجزائر خصوصا- من جهة وبين هؤلاء والعرب في المشرق من جهة أخرى شيئا آخر غير الغزو الهلالي -ولماذا لم يحدث مثل هذا التطابق مع الغزو الفرنسي وهو الذي يملك إمكانيات وأدوات لسحق ثقافة الشعوب، لم يكن يملكها الهلاليون- أعتقد أن على مثقفي الاستعمار من أوروبيين وجزائريين وعرب أن يثبتوا لنا بأهم ليسوا من خريجي مستشفيات المجانين؟! أو أن يعترفوا بأهم لا تجمعهم مع شعبنا "وحدة العشيرة" التي جمعت بين حسين آيت أحمد ومحمد بوضياف وأحمد بن بلة وكريم بلقاسم ومحمد خيضر ورابح بيطاط في مرحلة من أصعب مراحل مجتمعنا ووحدة العشرة هذه هي التي جعلت المصريين والشوام والعرب عموما يحتضنون الثورة الجزائرية وخصوصا قياديها من الأمازيغ، ويعتبرون الثورة ثورهم والقيادة قيادهم.. وهو أمر لم تفعله ألمانيا ولا أمريكا ولا الاتحاد السوفياتي ولا الهند سواء شعوبها أو حكوماهما فلم يكن التلاميذ السوفيات أو الأمريكان أو الهنود يحيون كل صباح علم بلادهم بنشيد قسما.. لقد فصل ذلك الأطفال العرب وحدهم دون أطفال العالم وقد فعلوه في كثير من الأحيان بعيدا جدا عن رأي حكامهم،

فهل لدى الذين يدعون أن شعبنـــا لا يمت بوحدة الدم مع العرب أن يفسروا لماذا ندفع العرب في النضال من أجل الجزائر ولماذا اندفع الجزائريون وخاصة البربر في النضال من أجل فلسطين!!

الوحدة التربوية

ويتحـــدث أبو يعلى الزواوي عن الزوايـــا في بـــلاد الزواوة ومحافظتـــها على الثقافة والتربية والأخلاق لدى العامة وموقفهم منها، ويقول:

(إذ لا فرق بين هذه الزوايا ومؤسسات الجمعيات والشـــركات العلميـــة الخيرية المقامة بأوروبا وأمريكا بأموال أولي البر من الوصايا والأوقاف ونحـــو ذلك فزوايا الزواوة كذلك دخلها من أولي البر والصلاح الملتزمين بعطايـــا من أرزاقهم وكسبهم للمؤسس الصالح المرجو بركته) ص **46**

ثم هو يربـــط بإحكام بين تأثير هـــذه الزوايا في نفسية النـــاس العميقـــة رغـــم ما اعتراها من ضعف في المظهر نتيجة الضغط على الأصول التربويـــة التي تعرض لها بعض الناس والطبقات في الزواوة.

(ومن عجيـــب أطوار أفـــراد من هذه الطبقـــة أن ترى الواحـــد منـــهم يصلي ولا يصوم والصلاة والصوم من أركان الإسلام الخمسة كما لا يخفـــى لكنك تراه كبير النفس قوي العزيمة ثابت الجأش كثير الأدب لا يكـــذب ولا يغش ولا يداهن ولا يتملق ولا يخضع ولا يشكو ولا يطمع وهو شديد الغيرة على الإسلام يجتهد في خدمته عامل على رفع شأنه بكل قوته وإذا سمع طعنـــا فيه أو افتراء عليه قامت قيامته..) ص **79**

وأعتقد أن هذا النوع من التربية التي بثتها الزوايا والذي يستقر في أعماق النفـس، هو ما عجز الاستعمـار عن اكتشافه وهو موجود في المشرق فكثير لا يصومون ولا يصلون لكنهم لا يقبلون في الإسـلام قدحا من أحد خاصـة من الأوروبيين.

عمل الاستعمار الفرنسي المعروف بين الـدول الاسـتعمارية بعنجهيته المتزايدة، وسوء الخلق، وادعاء حمل رسالة المسيح والحضـارة، علـى هـدم الزوايا والمساجد في منطقة القبائل وشن حملة تنصير واسعة حيـث اختطـف الأطفال وخاصة بعد المجاعـات التي تسبب فيها الجيش الاسـتعماري حـين حرق الزرع والصرع، ومن المعروف أن الجزائر وخاصة منطقـة القبائـل لم تشهد في تاريخها أية مجاعـة، إلا بعد الدخول الفرنسـي، فقـايض المبشـر "لافيجري" وجماعته من المبشرين الدين بالرغيف، وكان يرسل الكثير فيهـم إلى فرنسـا لتنصيرهم وتقول الباحثة الجزائرية خديجة بقطـاش: (ومن تبقى من هؤلاء الأيتام وعددهم حوالي **378** صبيا و**342** بنتا شغلوا بال لافيجري ولاسيما مستقبلهم، وحتى لا تضيع جهوده التنصيريـة سدى، وسط المحـيط الذي يعيشون فيه، قرر لافيجري عزلهم عنه، وذلك بإنشـاء قـرى عربيـة مسيحية تكون في نظره بمثابة النواة الأولى للأسرة العربيـة المسيحيـة) ص **126** –الحركة التبشيرية الفرنسية في الجزائر **1830–1871**. وهكذا فإن محاولات هدم الزوايا وعدم تجديدها وحرفها عن رسالتها سـواء في منطقـة القبائل أو غيرها من مناطق الجزائر ومحاولات تنصير القبائل لم تتوقف حتى هذا اليوم. بل لعـل حملة التنصـير اشتدت في أعقـاب الحرب العالميـة الأولى

جنبا إلى جنب مع اشتداد حملة التفتيت حيث شعر الاستعمار بقوقم وضعف العرب في المشرق والمغرب على حد سواء فسعى في تمزيقهم دينيا بالدعوة إلى النصرانية، وسلاليا بالدعوة إلى البربرية وركز حملته الدينية والعرقية على البربر، وساعده في ذلك بعض المارقين في المغرب العربي ويقول شكيب أرسلان في كتابه "لماذا تأخر المسلون ولماذا تقدم غيرهم؟": (ليس واحد من هؤلاء ولا من في ظلهم في المغرب إلا وهو مطلع على نيات فرنسا وعلى مراميها من جهة هذا النظام الجديد لأمة البربر، وليس فيهم إلا من هو عارف بوجود جيش من القسوس والرهبان والراهبات يجوس خلال بلاد البربر ويبني الكنائس ويصيد اللقطاء والأيتام والفقراء وضعفاء الإيمان. إلى أن يقول عن هؤلاء الخونة:.. أخزى الله الذين منهم في المشرق والذين منهم في المغرب ممن يوقعون على اقتراحات الأجانب المضرة بالدين الوطن) ص **92-93**

ويورد رشيد رضا في الصفحة **66** من كتاب شكيب أرسلان المذكور هامشا تحت رقم **13** يقول فيه:

(وقد منعوا الوعاظ في شهر رمضان من الذهاب إلى بلاد البربر وكانوا يحبسون من يخالف هذا الأمر وقد أقفلوا مئات من الكتاتيب القرآنية في المغرب ومئات من مثلها في الجزائر وأغلقوا دار الحديث في تلمسان واحتجت على ذلك علماء المسلمين في الجزائر فما سمعوا لها كلاما "أصر بعض رجال الدين الإسلامي في الجزائر على تعليم القرآن للأحداث فحاكموهم وحكموا عليهم بالسجن أربعة أشهر بحجة أنهم خالفوا الأوامر

الصادرة. وهلم جرا).

وطبعا فإنني هنا لا أفاضل بين دين ودين.. لكن التبشير الفرنسي الديني والذي ازداد نشاطه في العقد الأخير من القرن العشرين حين اضطرب الأمن في الجزائر وساءت أحوال الناس الاقتصادية، كان ولا يزال ككل تبشير استعماري، هو التفتيت للوحدة الفكرية للعرب والبربر خصوصا.. ذلك أن البربر ولنحدد هنا الزواوة هم على وحدة فكرية واحدة، فهم مسلمون سنة وهم بذلك يلتقون تماما مع الوحدة الفكرية للأمة العربية حيث أن **80 %** من العرب هم مسلمون سنة "المذهب الشيعي ينشر معظمه خارج الوطن العربي". وهذا التوحيد مع العرب له أسبابه، فكما ارتبطت النصرانية والتنصير في هذا العصر بالاستعمار الفرنسي ارتبطت في القرون الميلادية الأولى بالاستعمار الروماني بيزنطيا وغير بيزنطي، كما أن عدم الالتقاء السلالي مع الأوربيين نفر البربر منهم ويقول د.سعد الدين إبراهيم وهو باحث أمريكي من أصل مصري لم يعرف عنه الدفاع عن العروبة والإسلام، يقول في كتابه "تأملات في مسألة الأقليات" ص **86**.

(والبربر هم جماعة إثنية أصلية في شمال أفريقيا، وكانوا يمثلون أغلبية السكان الأصليين حينما وفدت إليهم جيوش العرب المسلمين في القرن السابع الميلادي، ولأنهم سلاليا ينتمون إلى الأسرة الحامية-السامية أو الحر متوسطية التي ينتمي إليها العرب، ولأن معظم النظريات عن أصولهم ترجع بهم إلى الجزيرة العربية أو الفينيقيين، فقد سهل ذلك في عمليات التفاعل والمصاهرة والتعريب والأسلمة).

وهكـــذا فإننا إذا اعتبرنا أن البربر قومية أخرى غـــير القوميـــة العربيـــة، فإنهـــم يرتبطون مع العرب بالوحدة الفكرية، فضلا عن الاتصال الجغرافـــي، وهذا ما أقلق ويقلق الاستعمار، لذلك كان ولا يزال يسعى لخلق قومية بربرية مسيحيـــة، وهذا يعني أن القوميـــة البربرية نفسها لن تكون موحـــدة بـــل على الأرجح أنها ستندثر لأن عملية تمسيحها إذا أخذنا بالاعتبار عدد الزواوة الذين تمسحوا خلال قرن ونصف القرن- لن تتم قبل **40** قرنا قادمة، وهـــذا يعني أن البربري سيفقد وحدته الدينية والتربويـــة حتى مـــع نفســـه فتقـــوم الحروب بين كل دشـــرة وأختها وتهجـــم تيزي وزو على بجاية وعزازقـــة على أزفون فيندثر البربر في سنوات قليلة.

فالأمير عبد القادر هو ابن الزاوية القادرية في غربي الجزائر وكان الشـــيخ محمد المهدي السكـــلاوي رئيس الزاوية الطريقة الرحمانية في منطقة الـــزواوة ومساعد الشيخ محمد المبارك وأحمد بن سالم هم السند القوي للأمير في الكفاح الذي عم قطرنا الجزائري، ويكفي أن الأمير عبد القادر تمكن من زيارة منطقة القبائـــل عام **1837** ونظم أمور المقاومة فيهـــا ولم يشـــر به ذلك الجنـــرال الأخرق "بيجو" الذي هدم مئات القرى الزواوية وزواياها.

إن دور الزاويـــة في الكفاح دور لا يجحد، بل أن الزوايـــة في الجزائـــر وفي المشرق العربي منبع الحركة القومية العربية وليس كما يـــدعي مؤرخـــو الغرب.

ولتوضيح هذه النقطة كنت أود لو أن شيخنا الزواوي قد تطـــرق لـــدور الزواوة في إعادة فتح الزوايا في دمشق التي أغلقها الترك وقبلهم المماليـــك،

ولعلي أذكر هنا أن الزاوية الصمادية في دمشق كانت قد أغلقت وحولها الأتراك إلى إسطبل فأعاد فتحها السيخ محمد بن يلس إثر هجرته من تلمسان ويمكن الرجوع في ذلك إلى جريدة المقتبس الدمشقية، أما الزاوية الخيضرية فيها، فقد فتحها السيخ محمد المهدي السكلاوي، أما دار الحديث فقد سمح الأتراك بتحويلها إلى خمارة فاشتراها الأمير عبد القادر وأرجعها إلى سابق عهدها دار علم ويمكن الرجوع في ذلك إلى كتاب "حلية البشر في تاريخ القرن الثالث عشر" للشيخ عبد الرزاق البيطار، أما المدرسة الجقمقية فقد تولى الأمير نفسه التدريس فيها وتلميذه فيها الشيخ طاهر الجزائري، ولما تزال قائمة قرب قصر صلاح الدين الأيوبي، فهي الآن متحف للخط العربي.

ومن المعروف أن الاستعمار الغربي قبله الاستعباد التركي حاول في كل من المغرب والمشرق تدمير وإغلاق هذه الزوايا، وفي أقل الأحوال صرفها عن أداء دورها العلمي والقومي فتحولت إلى ما يعرف في الجزائر بالطرقية وفي المشرق بالدروشة، وصار الطرقيون والدراويش، بعد أن حرفوا التصوف إلى مجرد طقوس، عونا للاستعمار وكما شن ابن باديس الصنهاجي حملته ضد الطرقية ونشر التعليم وناضل من أجل العربية والعروبة في الجزائر، فعل الشيء نفسه في المشرق العربي الشيخ طاهر الجزائري وشن حربه على الدراويش وعصرن التعليم وأعاد للعربية رونقها ووقف ضدُ سياسة التتريك.. وهو مؤسس جمعية النهضة العربية التي انبثقت عنها الأحزاب القومية في المشرق العربي وشيخنا أبو يعلى الزواوي نفسه من مؤسسي جمعية العلماء المسلمين في الجزائر التي حاربت الطرقية

والدراويش وانحرافاتهم.

وكنـــت أتمنى لو تحدث شيخنا أبو يعلى الزواوي عن المؤلفـــات العلميـــة في الطب والفلك وما إلى ذلك من علوم التي أنجزها رجال الزواوة من أبنـــاء هذه الزوايـــا من أمثال إبراهيم بن جابر الزواوي، إبراهيم بن قائد، إبـــراهيم بن بهلول، أحمـــد بن صالح الزواوي، أحمد بن الطيب الزواوي، أحمـــد أبـــو العباس الزواوي، بلقاسم بن محمد الزواوي، عبد الرحمـــان بـــن عبـــد الله الغماري الزواوي، عبد السلام بن سيد الناس الزواوي، عبد الله بن عبـــد الله المحفوف الزواوي، وغيرهم خلق كثير ممن أبدعوا وألفوا في العلـــوم البحتـــة والعلوم الدينية والعلوم اللغوية ويمكن للمهتم بهذا الموضوع من الدارسين أن يرجع إلى المراجع التالية:

1- تحفة الزائر في مآثر الأمير عبد القادر

2- تراث العرب العلمي/ قدري حافظ طوقان

3- تنوير البصائر بسيرة الشيخ طاهر

4- حاضر العالم الإسلامي

5- خزائن الكتب العربية في الخافقين

6- دائرة المعارف (للبستاني)

7- دائرة المعارف الإسلامية

8- دليل مؤرخ المغرب

9- سلك الدرر في أعيان القرن الثاني عشر

10- حلية البشر في تاريخ القرن الثالث عشر

11- كشف الظنون في أسامي الكتب والفنون

12- الأعلام (للزركلي)

13- معجم المؤلفين (فروخ)

14- أعلام الجزائر

15- علماء بجاية

16- تذكرة الورتلاني

17- شجرة النور الزكية

18- تعريف الخلف

19- التبصرة في القرآن

ولعل كتاب ابن خلدون هو دليل آخر وهام على أهمية علماء الزواوة فأشياخ ابن خلدون منهم، وخاصة شيخه أحمد إدريس الزواوي.. وقد علمت خلال كتابة هذا التعليق أن ثمة كتاب لباحث جزائري يسمى "أعلام من الزواوة" قيد الطبع والباحث هو الأستاذ أحمد ساحي.. وقد صدر فعلا قبل طبع هذا الكتاب، وهناك مراجع كثيرة أخرى تدل في نهاية التحليل على أن الجهد الحضاري للبربر كان في إطار الحضارة العربية.. وهذه الحضارة تضعهم موضع الصدارة منها فهم مؤسسون فيها.. فلماذا يراد لهم اليوم التخلي عن جهدهم الحضاري هذا (وإلحاقهم بأوروبا التي من المؤكد أنها لن تقبلهم، كما فعلت بالأتراك قبلهم) فمادام البربر قد استعربوا (حتى وإن لم يكونوا عربا) وصنعوا حضارة عربية، وبإمكانهم اليوم تجديدها وقيادتها فما هو الداعي لزرع الفتنة بينهم وبين العرب!!

ن موقع الإنتاج الثقافي الحضاري "الزوايا" في بلاد المغرب والمشرق كان دائما مستهدفا من الأجنبي سواء كان مملوكيا أو تركيا أو أوروبيا ومر بنفس المعاناة تقريبا، ونفس النظام حيث الطالب فيه يمكنه أن يظل "طالبا" طوال عمره والشعب يكفيه مؤونته، وهو مطالب في كل الأحوال بالإنتاج العلمي سواء كان شفويا أو خطيا.. وهذا التفرغ للعلم لم تعرفه أوروبا وعرفته زوايانا في المغرب والمشرق وقد شجع ابن جبير في كتابه المعروف "رحلة ابن جبير" طلبة العلم من أهل المغرب على طلب العلم في زوايا المشرق ويخص منها تلك التي في دمشق حيث يشير أنها تكفي طالب العلم مؤونته إذ يقول في ص 258 طبعة الجزائر (فمن شاء الفلاح من نشأة مغربنا فليرحل إلى هذه البلاد ويتغرب في طلب العلم فيجد الأمور المعينات كثيرة، فأولها فراغ البال من أمر المعيشة وهو أكبر الأعوان وأهمها) ومن المعروف أن ابن جبير ولد عام 1145م في الأندلس وتوفي بالإسكندرية عام 1217م.

وهكذا فإن نظام الزوايا الموحد مشرقا ومغربا نظام حضاري عربي إسلامي موجود في تيزي وزو قبل أن توجد باريس نفسها!! ومع ذلك يقولون عنا أننا بربر ويقصدون أننا همج، فورب جرجرة لم تعرف البشرية همجية أكثر من همجية المستوطنين والمستعمرين الذين هدموا هذه الزوايا سواء في المشرق أو في المغرب وصرفوها عن رسالتها العلمية.

ويمكن القول أن الباحث الجزائري خصوصا والعربي عموما مقصر في مسألة البحث في دور الزوايا والكتاتيب، العلمي والديني والسياسي والاجتماعي وهو تقصير له بعض الأسباب العلمية والعملية، مثل عدم توافر بعض شروط

البحث وهي أسباب يمكن تداركها، غير أن هناك من الأسباب ما يدخل في محاولة طمس التاريخ مثل الاعتقاد بأن هذه البحوث تؤدي خدمة للفكر غير العلمي، أو أنها تثبت عروبة البربر، أو أنها لا ترضي فرنسا، أو أنها تشجع الطرقية والدروشة، وما إلى ذلك من أسباب أقل ما يقال فيها أنها خدمة للمستعمر.. ذلك أن النظام التربوي في زواوة أو ردفان لم يدرس بعد، وها هي المدرسة الجزائرية والمدرسة في عموم الوطن العربي، تعاني من مشكلات حقيقية، لأن نظامنا التربوي الحالي مغربا ومشرقا هو نظام غير مرتبط بالجذور، بل هو مستورد أصلا، وبالتالي فإنه غير ناتج عن تراكم.. وسنظل نعاني من هذه المشكلة ما لم تعقد دراسات علمية جدية حول "النظام التربوي العربي" أعتقد أنها مهمة مركز دراسات الوحدة العربية.. فمن المعروف لدينا أن هناك مؤتمرات تنعقد لوزراء الداخلية العرب ولوزراء الإعلام، أولائك يقمعون وهؤلاء يكذبون.. أما وزراء التربية فقلما يجتمعون.. أليس ذلك بملفت للنظر؟!

وحتى لا يتوهم القارئ، أقول بأني لم أدرس في زاوية ولم أدخلها إلا كما يدخلها الزائر، ولكنها تراث شعبي الذي في بجاية وعزازقة والقدس ودمشق واليمن، فليس صحيحا أن لا أحاول فهم هذا التراث وهذا النظام التربوي الذي قاوم الفرنسة مغربا والتتريك مشرقا وكان أبطاله في الحالين زواوة أمازيغ!! لابد أن فيه من الثراء ما يصلح في هذا الزمان ويثريه ويطوره، كما فيه ما لم يعد صالحا لا لهذا الزمن ولا للزمن السابق، وإني أعتقد أن هذا الأسلوب الصحيح لتطوير المنظومة التربوية (المدرسة) في الجزائر والوطن

العربي عموما.. يبدأ من نقطة الدراسة العميقة للنظام التربوي القديم المعمول به منذ عشرات القرون، دراسته بعمق عند أبي حامد الغزالي، والكسائي، وابن خلدون.. في المدرسة المستنصرية في بغداد وفي مدرسة النجف ومدرسة القيروان وبجاية وتلمسان وفاس وربطها بهذا العصر ومستجداته إذ أن ذلك النظام التربوي هو الذي أنتج علماء ما نسميه الحضارة العربية الإسلامية. بينما المنظومة التربوية ومناهجها التي رسمها الإنجليز في مصر والفرنسيون في الجزائر لا تبدو ناجحة هذه الأيام ولا تبدو كمدرسة متنورة بينما تبدو المدرسة أو المنظومة التربوية التي وضع أسسها الشيخ طاهر الجزائري ثم جودت الهاشمي الينيوي في بلاد الشام تحمل نجاحا نسبيا في التنور أفضل منهما وهي ملاحظة تستحق الدرس من قبل المهتمين بالمنظومة التربوية، إذا كانوا يقصدون توحيد المجتمع الجزائري مع تراثه ومع العصر لا تمزيقه وتفتيته، فالمدرسة التي لا توحد الشعب لا يمكن أن تستمر.. ولعل هذا يفسر استمرار الزوايا رغم ما حل بها من تحريف وانحراف وتخريب وكلها أشياء تحدث عنها أبو يعلى الزواوي في فصله هذا تصريحا أو تلميحا.. لقد حافظت "الزوايا" رغم جمودها على الوحدة التربوية للبربر مربوطة بالوحدة التربوية للعرب، كما تظهر ذلك الكتب المقررة التي تحدث عنها المؤلف وهذه الوحدة.. وهذا الربط ألا يستحقان الدراسة؟!!

والطريف أن بعض "أذكياء" الاستعمار يظهرون غباء خارقا للعادة حيث يقول بعضهم أن للبربر عادات قديمة مسيحية الأصل.

ومن المعروف أن هذه العادات عربية قديمة لما تزل لها مثيلاتها في هذه المنطقة أو تلك من مناطق المشرق العربي، والمسيحية نفسها ديانة عربية أرامية، كما اليهودية.. ولعل المدقق والمتفحص لعادات الشعوب القديمة في جبل الأطلس وجبال لبنان وعسير وردفان يجد تشابها كبيرا، لنأخذ مثلا نظرة القداسة للماء، بل أن هذه النظرة تشبه نظرة تقديس الماء عند الهنود...

لقد دافع الزواوة عن دينهم، ولعلهم كانوا أكثر دقة في تحديده فالزواوي العادي لا يفرق بين العربي والمسلم، فما دام **80 %** أو أكثر من العرب هم من المسلمين أفلا يصح تسميتهم بدينهم، أو لا تتبع القلة الكثرة ويعتبر ذلك في هذا العصر من أصول الديمقراطية؟

والزواوة أبدعوا داخل هذا الفهم " العربي-الإسلامي" في مختلف مجالات العلوم، بل لا نكاد نجد لهم إبداعات حضارية ونظاما تعليميا خارج الحضارة العربية، رغم ما تحاوله بعض الأبحاث المشكوك في نزاهتها...

ويذكر أبو يعلى في فصله المخصص للزوايا عند الزواوة عددا من العلماء الذين تخرجوا من هذه الزوايا ويذكر أهمية الزاوية كمدرسة وجامعة ومسجد ومأوى للغرباء والمسافرين وهو يفاخر بها ويعتز، خاصة وأن هذه الزوايا تقوم على نظام شعبي حضاري لم تعرفه أوروبا إلا في عصورها المتأخرة هذه.

وكم كنت أتمنى لو أن مؤرخنا أفاض بالحديث عن هذه النقطة، ولعل عذره هو انه يكتب في ظروف جد صعبة فالاستعمار الاستيطاني الفرنسي قد ظهر في أعقاب الحرب العالمية في أكثر صوره شراسة ضد الشعب الجزائري وخصوصا الزواوة وزواياهم فقد دمر حتى ذلك الوقت آلاف القرى والمداشر

ومئات الزوايا.

فالزاوية لم تكن قلعة علم ودين فقط بل هي أيضا قلعة نضال ومقاومة ضد الاستعمار الفرنسي، وإن كان لكل قاعدة استثناء.

وحدة العقل

يذكرنا أبو يعلي الزواوي في كتابه هذا وعلى طريقته بأن العقل البربري كالعقل العربي هو عقل شرقي وأن البربر يجدوا مكانتهم القيادية في الفكر الشرقي العربي، ويحققوا نبوغا فيه حيث

يخبر أن بعضا من البربر الزواوة نبغوا في المشرق العربي في القديم والحديث فيقول في صفحة **47** (وبهذه الزوايا كثر علماء الزواوة قديما وتخرج منها فطاحل إذا ذكروا يفتخر الزواوي ويرفع رأسه شرفا وتيها وكذلك بطبيعة الحال يقتضي أن يكثر علماء الزواوة لموقعهم الجغرافي فإن إحدى عواصمهم "بجاية" كانت حاضرة وميناء من موانئ الحرب للأساطيل الأندلسية وكانت قرى الزواوة إذ ذاك لا تعد ولا تحصى). إلى أن يقول (وفي كتب التاريخ والرحلات والتراجم ألوف من علماء الزواوة وفيهم من تولى القضاء والتدريس في مصر والشام) ويركز على المنكلاتي صاحب شرح صحيح مسلم والقاضي في مصر والشام ويقول أن قبيلة آيت منكلات قبيلة من العرب وهي من الأذواء الحميرية، ثم يذكر ابن معطي الزواوي من قبيلة أمشدالن.. ويتحدث أبو يعلى الزواوي عن الزواوة الذين نبغوا منذ أواسط القرن التاسع عشر في بلاد الشام فيقول في صفحة **37** (وقد نبغ في هذا العهد الأخير من رجال الزواوة بالشام وبغيرها من مدن سورية

عدد غير قيل) ويذكر عددا كبيرا منهم.

ويقر المشارقة من الدمشقيين وغيرهم هذا النبوغ فيقول كتاب تاريخ علماء دمشق في القرن الرابع عشر الهجري (وقد سعدت دمشق بهجرة المغاربة إليها كما سعدت من قبل بهجرة بني قدامة المقادسة، وكان على رأس المغاربة الشيخ الأمير عبد القادر الجزائـــري الذي اهـــتم بـــالعلم والعلمـــاء والتصـــوف والمتصوفـــة، وصحبه علماء كانوا معه ولحق به آخرون في هجرة ثانية، فـــإذا بالمدينة المباركة يسري فيها دم جديد، وتشتد فيها اشتعال جذوة الفكـــر.. لم يكونوا جسما غريبا يرفضه الجسم، بل صاروا عضوا منه لا يمكن له الاستغناء عنه، صاروا دمشقيين لهم ما لأهل دمشق وعليهم ما عليهم) ص **18**.

وقد تحدثـــت عن ذلك في كتابي المطبوع في الجزائـــر "الإشعـــاع المغـــربي في المشرق العربـــي-دور الجزائريين في الشام"، فتأثيرهم في الحياة الثقافيـــة في المشرق العربـــي لا ينكره إلا أحمق. وليس في المشرق العربي كتاب في سيرة المثقفين والمؤلفين صدر منذ أوائل هذا القرن لا يحتوي على ذكرهم منها:

- روض البشر
- ذيل روض البشر
- أعلام دمشق
- تاريخ علماء دمشق
- أعيان دمشق
- رجال في أمة
- سيرة جيل

- الموسوعة الفلسطينية
- الثورة السورية الكبرى
- جهاد الأمير سعيد
- منتخب التواريخ لدمشق
- الأعلام الشرقية
- شهداء الثورة العربية

كما أن هناك بعض الكتب التي كتبها صحافيون أو باحثون فرنسيون زاروا المنطقة، بالإضافة إلى جميع الصحف التي صدرت في سوريا ولبنان منذ منتصف القرن التاسع عشر، كما ليس هناك كتاب يتحدث عن تاريخ بلاد الشام منذ مطلع القرن العشرين حتى الآن ولا يذكر الزواوة ونضالهم ومقاومتهم للاستعمار الفرنسي والبريطاني والصهيوني، إذ تذكرهم كتب مثل: يقظة العرب، الثورة العربية الكبرى، ثورة في الصحراء، تاريخ سورية، وعشرات الكتب الأخرى بالعربية الفرنسية والإنجليزية والألمانية. أما دورهم في القرن التاسع عشر فأكثر من مشهور، فكل كتاب تناول تاريخ الشام في النصف الثاني من القرن التاسع عشر سواء سياسيا أو ثقافيا كان للزواوة فيه الذكر الأكبر والأوسع.

والملاحظ في كل ذلك أن الزواوة نبغوا في بلادهم ونبغوا في المشرق العربي بذات الثقافة وقادوا الثقافة والسياسة، ولم يشعروا بأنهم خارج وطنهم.. فهل من ذلك شيء من نبوغ الزواوة في أوروبا.. لقد نبغ كتاب الزواوة باللغة الفرنسية من أمثال كاتب ياسين ومولود معمري وغيرهم كثير، فهل تعدهم

فرنسا نوابغ فرنسيين كما يعد المشارقة النوابغ الزواوية بل ودون أن ينكروا عليهم زواويتهم أو أمازيغيتهم أو بربريتهم، إن الشيخ طاهر الجزائري كان كثيرا ما يوقع بالزواوي وكان يعتز بذلك ويفخر.. وقد أوردنا نصا عن سعادة دمشق بهم وبعلمهم، وطاهر الجزائري بنظر بعض المشارقة هو مؤسس النهضة العربية الحديثة وهو أحد أعمدة الفكر القومي العربي الحديث.

إذن فإن الزواوة نبغوا وينبغون داخل الحضارة العربية، ويقودونها دون أن يقول لهم أحد أنتم "انديجين" أعتقد أن للزواوة كل الحق في تطوير الحضارة العربية، المتخلفة اليوم تقنيا تخلفا واضحا، وسيفعلون ذلك من ذات الموقع، موقع الأصالة لا الغربة، وموقع الابن الشرعي لا المتبنى.. وسيطورونها بالطريقة التي يرونها، فإن رأوا أن الحضارة العربية لابد لها أن تغير مسارها فسيتغير أما أن يقوموا بتحطيمها بدعوى أنهم بربر، فهذا غير معقول، لأنهم بذلك إنما يحطمون أنفسهم وعقلهم.. فحتى اللغة العربية (سواء كانت لغة الجنة أم لغة الجحيم) تطورت وتقننت على يد البربر ولا أعتقد أن فلاسفة أو شعراء مثل أبوليوس، وابن رشد، وابن زيدون، ومفدي زكريا وآلاف النوابغ قديما وحديثا "سيبول" عليهم الزواوي لأنهم نبغوا في حضارة لا يحبها المستعمر الفرنسي وأذنابه، فقد اتحد نبوغ البربر بالنبوغ العربي مغربا ومشرقا كما اتحدت التربية والوطن والعادات والأخلاق والجغرافية والتاريخ، وليشرب الاستعمار البحر المتوسط كله!!

ويجب أن انوه هنا أن هذا النبوغ لأهل المغرب العربي في المشرق العربي، وهذه المشاركة في صياغة العقل العربي ليست وليدة هذا الزمان بل هي كانت

منذ أن كان الزمان، مكان أبوليوس ابن مداوروش كاهنا من كهـــان آلهـــة المصريين القدامى، إن الجزائريين والبربر منهم على وجه الخصوص عبدوا آلهة الفينيقيين وطوروا في الديانات الفينيقة حسب مقتضيات أحـــوالهم وعبـــدها الفينيقيون أنفسهم مطـــورة ومنها الآلهة "أوروبا" التي سميت القارة الأوروبية باسمها. أما في العصر الإسلامي فإن علماء المغرب العربي من أندلسيين وغـــير أندلسيين هم قادة الفكر في المشرق العربي وخاصة في المسائل الدينية "فـــإبن العربي" لـــه في دمشق المكانـــة العظمى وأما سيدي بومدين في القدس فلـــه من القداسة الشيء الكثير.

وينظـــر رجل الشارع المشرقي إلى "المغربي" نظرة احترام عالية فالمغاربـــة في نظر المشارقة هم رجال التقى والنقى، بحيث يعتقد العوام هناك أن "حـــرز" المغربي أكيد الأثـــر، كما ينظر المشارقة إلى المغاربة على أهم رجال صناديـــد يأتون من البطولات ما لا يقدر عليها غيرهم، وقد زادت الثورة الجزائرية هذه النظرة تأكيدا وترسيخا، وقد عومل الزعيم الوطني حسين آيت أحمد خلالهـــا باعتباره قائـــدا قوميا عربيا في المغرب والمشرق، وينظر المغاربة إلى المشارقـــة على أهم أهل حضارة وإبداع وإعمال نظر، وهكذا رأينا أن كثيرا من الأقطار التي تنبت في المشرق تجد لها صدى في المغرب، والعكس صحيح أيضا، فهـــذا ابن خلدون وابن رشد وغيرهما من المغاربة يلاقون الاحترام في المشرق أكثر مما يلاقونه في المغرب، وهذه الدولة الفاطمية التي بنت القاهرة (التي تكاد تكون عاصمة العرب في هذا العصر) تدرس في المشرق أكثر مما تدرس في المغرب بل هاهم الكتاب الجزائريون باللغة الفرنسيـــة من أمثال مالك حـــداد، كاتـــب

ياسين، محمد ديب، وغيرهـم ترجموا إلى العربيـة وتداول النـاس كتابتـهم أكثر مما تداولها القراء بالفرنسية.. ولاقـوا من الاحترام والتبجيل ما لم يلاقوه بفرنسا التي كتبوا بلغتها، ففرنسا تستغلهم والمشرق يحترمهم ولعـل الفـرق واضح بين الاستغلال والاحترام.

ويجدر بي قبل أن أضع نقطة الختام لهذا التعليـق أن أشـير إلى أن الدولـة العبريـة في البلاد العربية باعتبارها تفتقد إلى الكثير من مقومات الشرعية منذ أن بدأت تظهر في أعقاب الحـرب العالمية الأولى تحاول (حتى تكتسب بعض الشرعيـة) أن تضرب الوحدة العربية في الأعماق فتخلق بينها كدول الكثير من المشاكل على حدودها وتختلق داخل هذه الحدود الكثير من المشكلات بين جهات وعشائر ومدن وقرى القطر الواحد.. ولا نعتقد أن هذا سيكسب أي قطر قوة، وأي دولة شرعيـة، فالأمة العربية واحدة في التاريخ وفي الجغرافية وفي الثقافة وفي الهموم وفي المصير أيضا وهي باقية والحكام إلى زوال!!

وبكلمـة واحدة مختصرة أقول أن البربر كما أثبت التاريـخ هم شـركاء أصليون ومؤسسون في الحضارة العربية (وليس أية حضارة أخـرى) وهـم مسئولون بنفس الدرجة من المسؤولية على ازدهارها السابق وتخلفها الحـالي وتجددها المتوقع والمطلوب وليس هـذا مـوقعهم أو مـوقفهم في الحضـارة الأوروبية قديما وحديثا ومستقبلا.

سهيل الخالدي

كتاب

تاريخ الزواوة

تأليف

الفقير الضعيف الراجي عفو ربه اللطيف السعيد

ابن محمد شريف ابو يعلى

الزواوي

طبع على ذمة ملتزمه السيد الحاج عمر بن طيب [illegible]

الزواوي

عام – ١٣٦٠

طبع في مطبعة [illegible] في دمشق شارع مدحت باشا

هدية الكتاب

الى صاحب الشرف المجد ، ذى السيادة القعساء الصحيحة السند : ابن علي الشريف السيد احمد ، الهاشمي العلوي الفاطمي الزواوي .

مولاي كان لتاريخ الزوارة شأن عظيم ، وانتم من الاعاظم ، وكان لهم نسب كريم ، وانتم من الاكارم ، اما وقد كان او كاد ينسى ، فاقبل مني ان اجدده لمانا تناسى ، كما قال الاول :

(تناسوا بمن مضى اذا ظلمتم فالتأسي للنفس فيه عزاء)

فأهديه الى سيادتكم العظمى ، ولكم فيه الكلمة العليا .

السعيد بن محمد شريف ابو يعلى
الزواوى

فلما تعرفنا كأنني وإياكم لطول اجتماعنا لم نبت ليلة مما

وكاتبني المحب الفاضل الذكي الحافظ الشيخ السيد أحمد بما

نصه : وما هذه بنحوه البنا من جواهر آدابكم استودعناه الحافظة

واستنارت به البصيرة فيجدر بنا ان نجمل بما آنلنا البارعة الولائم لأنها

تفرق لدينا الاعياد والمواسم واملنا ان تتفضل علينا بزينة أخرى هي ان

تتحفنا بتاريخ مبدأ تملك وذكر الكتب التي اورثتك حسن الملكة الخ

وبالله التوفيق الى اقوم طريق وهو سبحانه الولي الحقيق .

هدية الكتاب

إلى صاحب الشرف المجد، ذي السيادة القعساء الصحيحة السند، ابـــن علي الشريف السيد أحمد، الهاشمي العلوي الفاطمي الزواوي.

مولاي كان لتاريخ الزواوة شأن عظيم، وأنتم من الأعاظم، وكان لهم نسب كريم، وأنتم من الأكارم، أما وقد كان أو كاد ينسى، فاقبل مني أن أجـــدده لعلنا نتأسى، كما قال الأول:

(فتأسوا بمن مضى إذا ظلمتم   فالتـــأسي للنفس فيه عـــزاء)

فاهديه إلى سيادتكم العظمى، ولكم فيه الكلمة العليا.

السعيد بن محمد شريف

أبو يعلى الزواوي

بسم الله الرحمن الرحيم

وصلى الله على سيدنا محمد وآله

تاريخ الزواوة

نحمدك اللهم أنت المبدئ المعيد، بدك القديم والجديد، تحي من تشاء وتميت من تريد، سبحانك أنت الإله القدير وأنت الولي الحميد، ونصلي ونسلم على النبي العربي، وعلى آله وصحبه العاملين بالقدر المادي والأدبي. وبعد فقد جرى ذكر التاريخ وما فائدته، فظنه قوم انه خبر يروى تخشى آفته، وقال آخرون أنه أسطورة الأباطيل تحظر عقيدته، وقال رجل أنه خير العبر، إذ هو ديوان المبتدأ والخبر فظهر لي أن أعزز هذا القول الثالث آخذا من الآية إذ أرسلنا إليهم اثنين فعززنا بثالث أجل لما فيه من العبرة، وأخذا الحديث "قاضيان في النار وقاض في الجنة" والله نزل أحسن الحديث هذا ولما جعلني الله شريف النسب، من بني هاشم وبني عبد المطلب، وكان مولدي بالزواوة، ومنشأي ومرباي في تلك القرى ذوات الزوايا، وكادت شهرة تلك القبائل الصنهاجية تكون طامسة لأعلام مجهولة، الأسباب كثيرة، وقضايا منها ما هي مقبولة، ومنها ما هي مزورة ومردودة تحرك لي الساكن، واستنجدني[1] الظاعن والقاطن[2] فأردت أن أضع كتابا صغير الحجم، كثير العلم، كنموذج من تاريخ الزواوة مقتصرا على تبيين نسبهم، وذكر شيء من فضائلهم، وما قيل

[1] اشارة إلى الجهال المهذارين بان الزواوة وبرابرة رومان الخ.

[2] فانتدبني كثير من الزواوة لتحرير شيء بما يتعلق بهم وبنسبهم

فيهـــم، وما كان لأوائلهم، ليكون النشيء الجديـــد على بصيرة من سلفهم ليعلموا ما كان من أمرهم، وليقتدوا بكل فعل مجيد،وينبـــذوا كل ما هو غير سديد، لعلهم ياخذون ببعض القديم وبعض الجديد، وألتـــزم الأحمـــاض فيـــه لتنشيط قارئيه، لأنفخ فيهم روحا قوية، وأبعث منهم ذوي همم عليه، وأهدي إليهم هذا الكتاب المستطاب فان فعلوا فذاك الصواب، وإلا فما علـــي مـــن حساب وإنما أنا كما قيل:

تذكرت قومـــي خاليا فبكيتهـــم   بشجـــو مثلي بالبكـــاء جديـــر
فعزيت نفسي وهي نفس إذا جرى   لها ذكر قـــومي لها أنـــة و زفيـــر
لعـــل زمانا جـــرى يوما عليهـــم   لهم بالـــذي تهوى النفوس يـــدور
فيفـــرح محـــزون وينعـــم بائـــس   و يطلق من ضيق الوثـــاق أسيـــر
رويـــدك إن اليوم يتبعـــه الغـــد   وإن حـــروف الدائـــرات تـــدور[1]

وجعلته على فصول سبعة عدد قبل في الرفود ذوي الشأن العظيم، أصحاب الكهف والرقيم، الفصل الأول في فضل التاريخ. الفصل الثـــاني في نســـب الزواوة، الفصل الثالث في محامدهم وخصائصهم. الفصل الرابع في زوايـــاهم وعلمائهم وخدمتهم العربية. الفصل الخامس في بعـــض عـــاداتهم. الفصـــل السادس في الإصلاح المطلوب. الفصل السابع في لائحة نظام التعليم المقترح وبيان طرائق التعليم.

---

[1] وردت بدون هامش في النسخة التي بين أيدينا

فضل علم التاريخ

إن فضل علم التاريخ لا ينكر وفوائده تذكر فتشكر، وقد نوه بـه جمع المؤرخين في كتبهم، ولم أرد استيعاب ذلك لشهرته، وعلـي أن قصـدي الاختصار، والإتيان بكلام جديد، لعلي بذلك أفيد و إلا فشيخ التاريخ ابـن خلدون رحمه الله قد أتى في خطبته في الموضوع بما هو كفايـة لمـن يريـد أن يكتفي، وإنما رأيت كلامه وكلام غيره من السادة المـؤرخين قـد لا يفـي بمقصودنا بسبب الحوادث التي لم تحدث لهم وذلك معنى قول عمر بـن عبـد العزيز رحمه الله تحدثون ويحدث لكم. وكذلك قول من قالوا بلزوم الاجتـهاد في كل عصر وفي كل قطر. وعلى هذا فالذي حدث لنا والذي نجتهد فيه ردّ أقوال جمهور من أهل وطننا هذا ممن يظن منهم أنهم من أهل المعرفـة فقهـاء وطلبة العلم بأن علم التاريخ غير مطلوب وأنه قصص وأساطير الأولين

كما قد اشرنا في الخطبة وأنه سهل ليس بأن يدرس إلى غير ذلك مما قـالوا ولقد قالوا مثل ما قيل الأولون ما ذكر في القرآن وكفى هذا ردًا عليهم ولكن لابـد من زيادة بيان للاقتناع والارتداع فنقول:

المرأة تلد الرجل طفلا والتاريخ يجعله رجلا أن فضل علم التاريخ لا يحصر فيحد، ومنافعه لا تستقرأ فتعد، وإنما هي بالإجمال تميز الفضيلة من الرذيلـة، والمحمدة من المذمـة، والشجاعة من الجبانة، والشهامة من السفاهة، والنجابة من الدناءة، والكرامة من اللأمة، والرفعة من الحطة، والنباهة مـن البلاهـة، والعبـرة من العظمة، بل الحياة من الممات، إلى غـير ذلـك مـن المحاسـن

والأضداد، مما عليه تقام القصور وتشاد، ونقدم طوائف وتؤخر أخرى وتذاد، إذ به تحي الأجناس أو تموت الناس، إذ هو للعقلاء معيار وقياس، وللسخفاء ممات وإفلاس، ومع انه علم طبيعي في الخليقة والأجيال، تتشبث به السوقة والأقيال ذلك بأنهم ذو المقاصد والأمال، والرغبة والرهبة فيما هنالك من الأعمال، والتشوق إلى ذكر غريزي المنوال، عزيز النوال، ليستفيد العارف ويفيد، ويقتدي بكل فعل حميد، وينبذ كل شائن حصيد، ويتخذ المنقى بين قديم وجديد، وأيد هذا كله الكتاب والسنة، وقال جل شأنه في غير ما آية: ﴿لقد كان في قصصهم عبرة﴾ وقال:﴿نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا إليك هذا القرآن وان كنت من قبله لمن الغافلين﴾ وقال:﴿وكلا نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك وجاءك في هذه الحق وموعظة وذكرى للمؤمنين﴾ وقال إمام المفسرين ابن جرير الطبري في تفسير الآية:﴿نحن نقص عليك﴾ أن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ملوا ملة فقالوا يا رسول الله حدثنا فأنزل الله عز وجل أحسن الحديث ثم ملوا ملة أخرى فقالوا يا رسول الله حدثنا فوق الحديث ودون القرآن يعنون القصص فانزل الله: "آلر. تلك آيات الكتاب المبين". قلت وهذا صريح في أن علم التاريخ علم جليل القدر والفائدة، عظيم النفع والعائدة، وهو مطلوب، ويفيد هذا النقل أن ليس علم فوقه سوى القرآن وعلى أن القرآن نفسه تاريخ وعبر، وديوان المبتدأ والخبر، ليتذكر أولو الألباب وقال تعالى ﴿لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب﴾. ﴿ما كان حديثا يفترى ولكن تصديق الذي بين يديه وتفصيل كل شيء وهدى ورحمة لقوم يؤمنون﴾.

وان مواعظ القرآن وعبرة لا تعادلها مواعظ أخرى وعبرها فلذا قال صـــاحب بانت سعاد يخاطب النبي صلى الله عليه وسلم:

مهلا هداك الذي أعطاك نافلة الـــ قرآن فيـــها مواعيـــظ وتفصيـــل

وبالجملة إن نكراننا علم التاريخ لإحدى الكبر في هذا العصر، نذيرا للبشر، لمن شاء أن يتقدم أو يتأخر، إذ من الفطرة السليمة التشوق وحب الإطـــلاع إلى بدء الخليقـــة وإلى انتهائها، وفي ذلك يقول أصـــدق القائلين: ﴿قل سيروا في الأرض وانظروا كيف بدأ الخلق ثم الله ينشئ النشأة الآخرة أن الله على كل شيء قدير يعذب من يشاء ويرحم من يشاء وإليه تقلبون﴾ وقال جل شـــأنه: ﴿وهو الذي خلق السموات والأرض في ستة أيام وكان عرشـــه على الماء﴾ وفي الحديث " كان الله ولا شيء غيره" وقال الطبري في تفسير هـــذه الآيـــة: (حدثنا خلاد بن أسلم قال أخبرنا النظر بن شميل قال اخبرنا المسعودي قـــال اخبرنا جامـــع بن شداد عن صفـــوان بن محـــرز عن ابن حصيـــن وكـــان من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلـــم ثم خرجوا من عنده وجاء قوم آخرون فدخلوا عليه فقالوا جئنا نسلم على رسول الله ونتفقه في الدين ونسأله عن بدء هذا الأمر قال فاقبلوا البشرى إذ لم يقبلها أولئك الذين خرجوا قالوا قبلنا فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم " كان الله ولا شيء غيره وكـــان عرشه على الماء" وكتب في الذكر قبل كل شيء ثم خلق سبع سماوات ثم أتاني آت فقال تلك ناقتك قد ذهبت فخرجت ينقطع دونها السراب فـــوددت أني تركتها له".

إن علم التاريخ يزيد في العقل والإيمان ويزيد في العلم والعمل ويورث الشهامة والشجاعة إذ تنير قضايا ثائرة الحماس في الغيورين، ويحرك ما سكن في الخاملين ويحمل ذوى الهمم العالية على المطالبة بمجد الأولين والحاضرين، ويثبت الأقدام عند الدفاع ويعير ما كان للأسلاف مما شاع وذاع، ويستجد المجدد ذا الشرف في الأمم، ويوقظ النائمين وينبه الغافلين، ذلك بأنهم إذا ذكروا بشرهم وكرمهم تنافوا فيه، وإذا عبر أحدهم بمذمة نعروا عليه، وقد اعتبره المتأخرون حياة الأمم أو موتها مثل اللغة يقولون لا حياة لأمة ماتت لغتها وكذلك لا حياة لأمة مات تاريخها ومن منافع علم التاريخ من لوازم علم الحديث ومعياره لمعرفة رجاله الأثبات والثقات لكيلا يدخل الحديث الزور والتوليج ومعرفة الناسخ والمنسوخ وهذا ركن مهم في الأصول وتأسيس الأحكام الشرعية وكذلك معرفة الأنساب للحديث (تعلموا من أنسابكم ما تصلوا به أرحامكم) وكذلك معرفة الوقايع والأيام وان جهل النسب خسارة كبرى، وجهل الوقائع مذمة عظمى، وبالأخص نسب الشرفاء وسببهم الذي لا ينقطع فكيف والحالة هذه لا يعتنى بالتاريخ؟ وهو إذا تعالت الفنون كان أعلى من المريخ،.. وقد عرف فضل التاريخ الإفرنج ودرسوا ما فيه، واستخرجوا كنوزه ومعانيه، ودونوا محامده ومساويه، وبينوا أصوله وقواعده، وحققوا فروعه ومذاهبه، وقسموه إلى أقسام، منه خاص وعام، ومعروف ومجهول، ومنبوذ ومعقول، فمنه طبعي ومنه جغرافي إلى غير ذلك مما تدبروا وتبصروا منه فأفادهم إرشادا وأدبا، وصار عندهم فرضا لا ندابا، ونجد أعلم علمائنا إذا تناظر مع أي علم من علماء أوروبا في شؤون التاريخ

والعمران وبدء الخليقة أو طبيعة الحيوان والبلدان إما يخبط خط عشـــواء أولا يدري ما يقول فيضحي أحصر من بأقل، أمام سحبان وائل، هذا ما يقال للذي يزدري علم التاريخ إن كانت له غيرة وحمية وإن الذي لا يبالي بما قيل فيـــه، فهو إما جهـــول أو سفيه، وسيان عنده، الحياتان الطيبة والخبيثة، وفي مثل هذا يقال ليس بحي فيرجي، ولا بميت فيرثى، إذ التاريخ كرامة ولا يأبى الكرامة إلا لئيـــم، ولا يغفل عن أصله إلا زنيم، ولقد أحيا التاريخ عدة أمم من أوروبـــا في هذه الحرب وقبلها فأحيا بولونيا وبولاندة وأوكرانيا وغيليسيا والســـرب قبل واليونان والبلغار وكانت هذه كلها تحت الدولة التركية أكثر من مئة سنة وأحيا أرمينية وأحيا الحجاز المقدس وسورية والعراق ومصر المباركة وأزيـــدك أن بسبب مجد أمة صغيرة وتاريخها قامت هذه الحرب على ساق وهـــي أمـــة السرب قام شاب من شبابها انفعل لها فصوب مسدسا له نحو أمير من أمـــراء النمسا وزوجته فقتلهما انتقاما لجنسه واسم هذا الشاب الذي جر هذه الحرب العظمى التي لم يشهد التاريخ مثلها "جافر يو اير بنسيب" وأنـــه لجـــدير أن بضـــرب به المثل في الشئوم فيقـــال: "أشأم من جافر يو" كما قيـــل أشـــأم من البسوس في المثـــل العربي. ترى قائدا من قواد الحرب أو شاعرا أو شريف قوم في إلقاء خطبة وجيزة يذكر مجد القوم وتاريخهم أو واقعة مـــن وقـــائعهم الشهيرة فيحرك فيهم ما سكن فتأخذهم النخوة والنعرة فيستميتون بحمـــاس فيندفعون إلى ساحة الوغى بلا أدنى مبالاة بالممـــات، أو يجعل قيمـــة الحيـــاة، ذكر المؤرخين أن نحوا من ثمانين عظيما من عظماء بني أمية بعد سقوط دولتهم كانوا في مجلس أبي العباس السفاح أول خليفة من بني العباس فكـــان قـــد تمّ

الصلح فقدم الشاعر مولى أبي العباس المسمى سيف فاستأذن فأذن له ودخل متلثما فشال اللثام وانشأ يقول:

أصبح الملك ثابت الأساس بالبها ليل من بني العباس

بالصدور المقدمين قديما والرؤس القماقم الرؤاس

إلى آخر القصيدة التي منها:

واذكرن مصرع الحسن وزيد وقتيلا بجانب المهراس

فلما انتهى تغير لون الخليفة أبي العباس وامتقع فتذكر الوقائع التي أشار إليها الشاعر وذكره فيها وهي موت بل قتل الحسين وزيد وحمزة من بني هاشم رضي الله عنهم فأمر الخليفة بقتل أولئك العظماء الحاضرين من بني أمية شر قتلة وأكلوا طعاما وشربوا ماء عليهم هنيئا مريئا وربما سمعوا أنين من بقي منه رمق الحياة ولم يشفقوا بل قالوا ما أكلنا طعاما أهنأ ولا أمرا من هذا، وأمثال ذلك كثيرة في عبر التاريخ وبالجملة ليس من شأن العقلاء العارفين ولا من شأن ذوي الهمم الغيورين كيف لا يعتبر المسلم التاريخ إذ كان أوائله غير مسلمين وكانوا وثنيين أو مجوسين لا شريعة يعملون بها ولا حكمة يهتدون بنورها وكانوا على شفا حفرة من النار فأنقذهم الله منها بإرسال رسول الله فهداهم على يده وأحدث انقلابا عظيما في العالم عموما وفي العرب خصوصا وأسس شريعة غراء في جبهة الدهر، وتاريخا يعد قمرا منيرا بين النجوم الزاهرة، ثم كيف يغفل المسلم عن درس التاريخ وفيه سيرة نبي خاتم الأنبياء صلى الله عليه وسلم. كيف كان وأصحابه الذين فتحوا العالم في مدة ربع قرن

ألا تكون لنا عبرة في استعراض تلك الوقائع والحوادث التي نحلى بها جيد الزمان والتي ارتفعت بها أمم وسقطت أمم على توالي الحدثان(لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر).

نسب الزواوة

اختلف المؤرخون في نسب الزواوة، والزواوة قبائل كثيرة مشهورة، ومواطنهم ومساكنهم بشمال افريقية يجعلهم البحر الأبيض المتوسط الممتد من خليج مدينة الجزائر إلى بجاية إحدى عواصمهم وإلى جيجل نصف دائرة فهؤلاء هم المعروفون والمشهورون بالزواوة، وهذا الخلاف في نسبهم هو الذي لفتنا إلى الاعتبار والبحث والتنقيب هل هم عرب أو بربر؟ فأدانا البحث الطويل الذي استغرق بضعة عشر عاما، والعمل ليالي وأياما، إلى نتائج مرضية، نعرضها على العلماء وأولى الأبصار، لا ليقال بل للاعتبار، وليس الغرض من ذلك إلا بيان الحقائق للأنام، ودفع الخرافات والأوهام، التي استولى كثيرها على عقول الجهال والعوام، إلا فكما قال تعالى ﴿يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله اتقاكم إن الله عليم خبير﴾. وعليه فنقول: من المسلم أن المؤرخين المسلمين فريقان أهل المشرق وأهل المغرب فالمشهورون والمعروفون من الفريقين هم الطبري والمسعودي وابن إسحاق وابن الكلبي والواقدي وابن الأثير وابن كثير وابن عبد البر وابن الخطيب والمقري صاحب نفح الطيب وابن هشام وابن عبد ربه وابن خلدون وغيرهم ممن طالعت كتبهم ممن تقدموا على ابن خلدون أو تأخروا مثل المسالك والممالك وهذا أشهر ومن المتقدمين

والمعرب عن سيرة ملوك المغـــرب والقرطاس وزهرة الشيارخ والممتع ونزهة المشتاق والجمـــان في أخبار الزمان والروض المعطر والاستقصا لأخبار المغرب الأقصى وغيرهم، والمعتبرون في الأنساب من هؤلاء أشار إليهم ابن خلـــدون فقال: والذين ذهبـــوا بفضل الشهرة والأمانـــة المعتبرة واستفرغوا دواويـــن من قبلهم في صحفهم المتأخرة هم قليلون لا يكادون يتجاوزون عدد الأوائل ولا حركات العوامل، مثل ابن إسحاق والطبري وابن الكلبي ومحمد ابن عمر الواقدي وسيف ابن عمر الأسدي والمسعودي أقول بسبب قصدي الاختصار والإفادة، لا الإطناب والخصام واللجاجة، وكان شيخ التاريخ عموما وتاريخ المغرب والبربر خصوصا الداركة النقاد النسابة ابن خلدون مـــن المتـــأخرين بالنسبة إلى المؤرخين والنسابين الذين ذكروا الزواوة وبسبب انـــه رحمـــه الله مغربي أندلسي الأصل بل يمنى حضرمي ثم أندلسي وولد بتونس ونشـــأ فيهـــا وكان في بجاية عاصمة الزواوة وتلمســـان وفاس وبالخصوص انه كان حاجبا للسلطـــان أبي عنان في أواسط القرن الثامن ومعنى هذه الخطة مثل (سكرتير جنرال) اليوم أي كاتم أسرار وصاحب الإمضاء وتولى ذات مرة رياسة بعثـــة من السلطان إلى شيخ الزواوة لمسائل سياسية وكـــان احد كبار شيوخه الذين اخذ عنهم زواويا فقال في ذلك ما لفظه: ومنهم -يعني شيوخه- الشيخ أبـــو العباس أحمد الزواوي إمام المغرب قرأت عليه القرآن العظيم بالجمع الكبير بين القراءات السبع عن طريق أبي عمرو الداني أهـــ وبهذه الأسباب كلها اعتمده في نسب الزواوة أكثر من غيره وانه أعرف بهم وأحق بالشهادة عليهم مع أدلة أخرى وبراهين قاطعة والله اعلم.

قال رحمه الله عند كلامه على البربر: وأما شعوب هذا الجبل- يعني البربر- فإن علماء النسب متفقون على أنهم يجمعهم جذمان عظيمان وهما برنس ومادغس ويلقب مادغس الابتر فلذلك يقال لشعوبه البتر ويقال لشعوب برنس البرانس وهما معا إبنا (بر) وبين النسابين خلاف هل هما لأب واحد فذكر ابن حزم عن أيوب ابن أبي يزيد صاحب الحمار أنهما لأب واحد على ما حدثه عنه يوسف الوراق إلى أن ذكر -اعني ابن خلدون- القبيلتين العظيمتين " كتامة وصنهاجة" هل هما من البربر أو لا فقال ما نصه: إن كتامة وصنهاجة ليسوا من البربر وأنهما من شعوب اليمن تركهما أفريقش بن صيفي بافريقية مع من أنزل بها من الحامية لهذه جماع مذاهب أهل التحقيق في شأنهم انتهى كلامه قلت سيأتي من كلامه أن الزواوة من بطون كتامة كما تقدم قريبان هم من شعوب اليمن وشعوب اليمن من العرب العرباء القحطانيين الحميريين وأولاد يعرب من قحطانة من المحقق أن العرب قسمان العرب والعرباء والعرب المستعربة والعرب المستعربة هم أولاد عدنان الذين صاهرهم إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام فعدنان الذي هو آخر من يجب معرفتهم من نسب النبي صلى الله عليه وسلم وهو عدنان- حفيد إسماعيل عليه السلام ومن أولاده معد ونزار ومضر ومنهم فهر الذي لقب بقريش وعلى هذا الحكم الصحيح يبنى أن كل مستعربي عربي وعلى أن القحطانيين أعرق في العربية من العدنانيين وأن فضل العدنانيين بالنبوة وبولايتهم الكعبة البيت الحرام ولكن ولاية الكعبة كانت قبل للقحطانيين إذ كان القحطانيون في شال جزيرة العرب ولهم دولة هناك قبل العدنانيين ثمانمائة سنة قبل ميلاد عيسى عليه السلام

ومن المؤرخين وأصحاب السير من جعلوا العرب كلهم من ولد إسماعيل عليه السلام وفي الروض الأنف للعلامة السهيلي: أما قحطان فاسمه مهزم فيما ذكر ابن ماكولا وكانوا أربعة إخوة فيما روي عن ابن منبه قحطان وقحط ومقحط وفلغ. وقحطان أول من قيل فيه أبيت اللعن وأول من قيل فيه عـم صـباحا واختلف فيه فقيل هو ابن عابر أبي شالخ وقيل هو ابن عبد الله اخو هود وقيل هو هود نفسه فهو على هذا القول من ارم بن سام، ومن جعل العرب كلهم من إسماعيل قالوا فيه هو ابن تيمن بن قيذر بن إسماعيل ويقال هو ابن الهميسع بن يمن ويمن هذا سميت اليمـن في قول وقيل بل سميت بذلك لأنها عن يمـين الكعبة، وتفسير الهميسع الصراع وقال ابن هشام يمن هو يعرب بن قحطـان سمي بذلك لان هودا عليه السلام قال له أنت ايمن أولادي نقيبة في خبر ذكره قال وهو أول من قال القريض والرجز وهو الذي أجلى بنى حـام إلى بـلاد المغرب بعد أن كانوا يأخذون الجزية من ولد قوط بن يافث قال وهـي أول جزية وخراج أخذه في بني آدم وقد احتجز لذا القول أعي أن قحطان من ولد إسماعيل عليه السلام بقول النبي صلى الله عليه وسلم ارموا يا بني إسماعيل فإن أباكم كان راميا قال هذا القول لقوم من أسلم بن أقصى واسلم من خزعـة وهو بنو حارثة بن شلبة بن عمر بن عامر وهم من سبـأ بن شحب ابن يعرب بن قحطـان أهـ كلام السهيلي ثم قـال ابن خلدون في الزواوة من لفظـه "الإلمام ذكر الـزواوة من بطون كتامة هذا البطن من أكبر بطـون البربـر ومواطنهم كما ترى مختلفة من بجايـة إلى تدلس (كـذا) في جبـال شـاهقة وأوعار متسنمة ولهم بطون وشعوب كثيرة ومواطنهم متصلة بمواطن كتامـة

هؤلاء وأكثر الناس جاهلون بنسبهم وعامة نسابة البربر على أنهم من بني سمكان بن يحي بن ضريس وأنهم إخوة زواغة والمحققون من النسابة مثل ابن حزم وأنظاره إنما يعدونهم من بطون كتامة وهو الأصوب والموطن أوضح، ثم قال رحمه الله عن كتامة ما نصه: "الخبر عن كتامة وبطون البرانس وما كان لهم من العز والظهور على القبائل وكيف تناولوا الملك من أيدي الأغالبة ودعوة الشيعة هذا القبيل من قبائل البربر بالمغرب وأشدهم بأسا وقوة وأطولهم باعا في الملك وهم عند نسابة البربر من ولد كتام بن يونس ويقال كتم ونسابة العرب يقولون أنهم من حمير وذكر ذلك ابن الكلبي والطبري وان أفريقش بن صيفي من ملوك التابعة وهو الذي افتتح افريقية وبه سميت وقتل ملكها وسمي البربر بهذا الاسم كما ذكرناه فقال: وقام في البربر من حمير صنهاجة وكتامة فهم فيهم إلى اليوم انتهى يعني كلام ابن الكلبي والطبري وتشعبوا في المغرب وانبثوا في نواحيه إلا أن جمهورهم كانوا لأول الملة بعد هيج الردة وطبخة تلك الفتن موطنين بأرياف قسنطينة إلى تخوم بجاية غربا إلى جبل أوراس من ناحية القبلة وكانت تلك المواطن وبلاد مذكورة أكثرها لهم وبين ديارهم ومجالات تقلبهم مثل "ايكجان وسطيف وباغاية ونقاوس وبلزمة وتيكست وميلة وقسنطينة وسكيكدة والقل وجيجل من حدود جبل أوراس إلى سيف البحر ما بين بجاية وبونة" وهنا ذكر ابن خلدون بطونا كثيرة من كتامة فقال إنها ملأت ما بين المغرب الأقصى وطرابلس الغرب إلى غير ذلك قلت وكذا قال الأستاذ المرحوم الشيخ طاهر الجزائري الدمشقي وهو واسع الإطلاع له في الفن طول الباع بحاثة كبير محقق ولما قال لي ذلك فات يوم ونحن بمصر سنة

1915 للميلاد أن الزواوة هم ما بين طرابلس الغرب وقصر وكتامة بالمغرب الأقصى فعارضتــه في ذلك بناء على ما لدينا من القبائل المشهورة بــالزواوة فأجاب أن لا وإنما العرب لما احتلوا الفريقية اختلطوا بهم والحال أنهم عــرب الأصل من اليمن من شعوب حمير ولغة حمير غير لغة مضر.

ثم قال ابن خلدون: وعد ابن حزم منهم -يعني البربر- الذين من كتامــة الزواوة بجميع بطونهم وهو الحق على ما تقدم وكان من هذه البطون بالمغرب الأقصى كثير منتبذون عن مواطنهم وهم بها إلى اليوم ولم يزالوا بهذه المواطــن على هذه الحالة من لدن ظهور الملة وملك المغرب إلى دولة الأغالبة ولم تكــن الدولة تسومهم بهضيمــة ولا تنالهم بعسف لاعتزازهم عليها بكثرة جموعهــم إلى أن قــل: ولما صار لهم -يعني كتامة وصنهاجة الملك بالمغــرب زحفــوا إلى الشــرق فملكوا الإسكندرية ومصر والشام واختطوا للقــاهرة أعظــم الأمصار بمصر وارتحل المعز رابع خلفائهم فترلها وارتحل معه كتامة على قبائلهم واستفحلت الدولة هنالك إلى أن قال: وكانت لهم -يعني الزواوة- في الدولة صنهاجة مقامات مذكورة في السلم والحرب وقال في موضع آخر من تاريخــه ما حاصله انه إذا تنازعــت قوتان بالمغرب أمرا من الأمور فالأغلبية والفــوز لجانب الزواوة والنصر حليفهم والإقدام دينهم والثبــات شأنهم أهــ ما أردنا من كلام ابنِ خلدون خلاصة كلام المؤرخيــن في الزواوة فالقول تعليقا عليه: مما يثبت أن الزواوة من قبائل حمير اليمانية أشياء كثيرة منها بعــض الأسمــاء والأعلام اليمانيــة القديمة باقيــة إلى الآن مستعملة عند الزواوة فمــن ذلك ما وقفت عليه في كتب الرحلة الحجازية وهو أمر عجيب جدا إذ أعطى حقه

من التأمل وهو قضية غريبة لا يدركها إلا الذي يتكلم لغة الـزواوة وإليـك ذلك بالحرف وهذا السد هو ما يسمونه بسد العرم وأول من بنـاه "آيـث عمرو"[1] ملك سبأ أهـ فان لفظة آيث عمرو قد أدهشتني عند الوقوف عليها وعلى أن المؤلف المصري العربي تقلها علميا فقط وان سبأ أهـ آخر حمير كما يأتي، ومن ذلك ما يقرب من هذا مما وقفت عليه في تفسير الفخر الرازي عند قوله تعالى: ﴿إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التي تجري في البحر﴾ فأستطرد المؤلف إلى الجغرافيا ليصف خليج فارس فقال ما لفظه "خليج بحر أرض فارس ويسمى الخليج الفارسي وهو بحـر البصـرة وفارس الذي على شرقيه"تزى أومقران" ومعنى لفظتي تزي أومقران" يفهمها من يحسن الزواوة وغيره يظنهـما علـما مزجيا أو مركبا فقط ومعنى تـزي بكسر المثناة فوق هضبـة أو أكمة ومعنى أمقران الكبير وتعريبـها "الهضـبة الكبيرة" والشيء الذي يعتبر ويؤيد هذا أيضا أن الحميريين من اليمانيين احتلوا تلك الجهة من الخليج الفارسي كذا في الرحلة الحجازية التي صاحبها مطلـع ومحقق من محققي المتأخرين وكذا ابن هشام صاحب السيرة النبوية ذكـر أن الحميريين غزوا البحرين ونزلوا بالخليج الفارسي ثم انظر هل هذا قبل سـيل العرم أو بعده أما نزوحهم إلى مغربنا هذا فكما تقدم أنهم قدموا مع أفـريقش بن صيفي وأنهم مشهورون أولو قوة وألو بأس شديد وذكر صاحب الرحلـة الحجازية استخبار عمرانهم وقوتهم ومصانعهم وبالأخص السد الذي بنوه وبلغ طوله ثمانمائة ذراع وعرضه مائة وخمسون ذراعا لا محالة وقد أشار إلى ذلـك

[1] سيأتي الكلام على نقطة آيث قريبا وكل آت قريب

القرآن وبه كفاية وقال تعالى ﴿لقد كان لسبأ في مساكنهم آية جنتان عن يمين وشمال كلوا من رزق ربكم واشكروا له بلدة طيبة ورب غفور فأعرضوا فأرسلنا عليهم سيل العرم وبدلناهم بجنتيهم جنتين ذواتى أكل خمط وأثل وشيء من سدر قليل ذلك جزيناهم بما كفروا وهل يجازى إلا الكفور وجعلنا بينهم وبين القرى التي باركنا فيها قرى ظاهرة وقدرنا فيها السير سيروا فيها ليالي وأياما آمنين فقالوا ربنا باعد بين أسفارنا وظلموا أنفسهم فجعلناهم أحاديث ومزقناهم كل ممزق﴾ صدق الله العظيم.

وقد صاروا أحاديث وبالأخص عند المؤرخين وقد كثر كلامهم عنهم وفيهم قال جل ذكره: "وقوم تبع كل كذّب الرسل فحق وعيد"، قلت وقد ورد الثناء على حمير وسبأ وتبع وفي تيسير الوصول إلى معرفة حديث الرسول ما روي عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: "إن رجلا من قيس قال يا رسول الله ألعن حميرا فاعرض عنه فأعاد عليه فقال صلى الله عليه وسلم رحم الله حميرا أفواههم سلام وأيديهم طعام وهم أهل أمن وإيمان" أخرجه الترميذي وأما تبع فقيل أنه نبي وفي الروض الأنف للسهيلي روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: "لا تسبوا تبعا فإنه كان مؤمنا" وقيل التبابعة هم عليك حمير ومأرب اسم ملك سبأ وان أفريقش الذي نزل افريقية وسميت باسمه وكان قدومه افريقية بكتامة وصنهاجة وهو أحد ملوك حمير ثم أن مما يؤيد أن البربر من حمير مشابهة الخطين الحميري والبربري مشابهة كبيرة ورأيت في المجلة الآسيوية منذ أعوام أن علماء الأثر اكتشفوا أي وجدوا الخط الحميري في قرية من قرى افريقية منقوشا على حجر. ومنها ما ذكر ابن عبد ربه في أنساب

اليمن فقال قحطان ابن عابر وعابر هو هود النبي عليه السلام بن شالخ بن أرفخشذ بن سام بن نوح عليه السلام فالقحطانيون إذن أبناء هود والعدنانيون أبناء إسماعيل عليهما السلام فولد يعرب ابن قحطان يشحب وولد يشحب سبأ وولد سبأ حميرا وكهلان فإن القبائل قد تفرقت منهما وولد حمير كثيرا فمن أولاده ملك والهميسع وزيد واوسا وعرين ووائل ودرمى وكهلان وعمير كرب ومشروح ومرة رهط معد يكرب بن النعمان القيل (الملك) الذي كان بحضرموت وقال-أعني ابن عبد ربه- عن التبابعة تبع الأصغر اسعد أبو كرب واسمه تبان بن ملكيكرب وهو تبع الأكبر ابن قيس بن بن زيد بن عمر ذي الاذعار بن أبرهة ذي المنار وتبع بن الراكش بن قيس بن صيفي وملكيكرب تبع الأكبر يكني أبا مالك وله يقول الأعشى:

وخان الزمان أبا مالك ... وأي امرئ لم يخنه الزمان

ومن الشواهد أيضا أن الحميريين قدموا المغرب ما عثرت عليه من شعر احد أبناء ملكيكرب يذكر المنازل وتفرق قومه فقال:

و قد فارقت منا ملوك بلادها ... فساروا بأرض ذات مبدى ومحضر
وقد نزلت منا خزاعة منزلا ... كريما لدي البيت العتيق المستر
و في يثرب منا قبائل إن دعوا ... أتوا سربا من دارعين وحمير
هم طردوا عنها اليهود فأصبحوا ... على معزل منها بساحة خيبر
وغسان حي عزهم في سيوفهم ... كرام المساعي قد حووا أرض قيصر
وقد نزلت منا قضاعة منزلا ... بعيدا فأمست في بلاد السنوبر

وكلــب لها ما بين رملـه عالــج إلى الحرة الرجلا من أرض تدمــر
ولخم فكانــت بالعراق ملوكــها و قد طرحت عدنان في كل مطحر
وحلت جذام حيث حلت وشاركت هنالك لخمــا في العلى والتجبــر
وأزد لها البحران و السيف كلــه وأرض عمان بعــد أرض المشقــر
و منا بأرض المغرب جند تعلقــوا إلى بربــر حتى أتــوا أرض بربــر

ومن ذلك أيضا أن كلمة (ذو) التي هي من مســتعملات ملــوك بطــون الحميرية المسماة الذوون فيقولون ذو وانكلاع الذي هو يزيد بن النعمان وذو الكــلاع الأكبر حتى عرفوا بالأذواء موجودة. ومثل هذه الكلمة والقاعــدة في قبائــل الزواوة "أيث" بمعنى ذوي فيقولون للجذم أو للسلطــان أو القبيلة آيث يحي، آيث ياني، آيث وسيف، آيث ذار، آيث يثورغ، آيــث صــدقاء، آيث يراتن، آيث فرواسن، آيث خليلي، آيث بوشعايب، آيث يجـر، آيــث جناد، آيث غبري، آيث فليق، آيث وجنون، آيث عمر، آيث وغيس، آيث يعلى، آيث مليكش، بوعكاش، آيث منصور، آيث منجلات وهلم جرا.

وقال ابن عبد ربــه ومن بني صيفي بن سبأ بلقيس وهي بلقمــة ابنــة آل فــرخ بن ذي جدن لحرث بن قيس بن سبأ الأصغــر ومنهم حمير التابعــة وهم تسعــة وفي الروض الأنف: روي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم انه قال: "لا تسبوا تبعا فإنــه كان مؤمنا" ثم قال أعني صاحــب الروض الأنف السهيلي لا ندري أي التابعة أراد في حديث معمر عن همام بن منبه عــن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لا تسبــوا أسعد الحميري فإنه أول من كسى الكعبة وهذا اصح من الأول هو قال الطبري عند قوله تعــالى

﴿كذبت قبلهم قوم نوح وأصحاب الرس وثمود وعاد وفرعون وإخوان لوط وأصحاب الأيكة وقوم تبع﴾ عن ابن عباس أنه سأل عبد الله بن سلام عن تبع ما كان فقال أن تبعا كان رجلا من العرب وأنه ظهر على الناس فاختار فتية من الأخيار فاستبطنهم واستدخلهم حتى أخذ منهم وبايعهم وان قومه استكبروا ذلك وقالوا قد ترك دينكم وبايع الفتية فلما فشى ذلك قال للفتية فقال الفتية بيننا وبينهم النار تحرق الكاذب وينجو منها الصادق ففعلوا فعلق الفتية مصاحفهم في أعناقهم ثم غدوا إلى النار فلما ذهبوا إلى أن يدخلوها سقمت النار في وجوهم فنكسوا عنها فقال لهم تبع لتدخلوها فلما دخلوها أفرجت عنهم حتى قطعوها وأنه قال لقومه ادخلوها فلما ذهبوا يدخلوها سفعت النار وجوههم فنكصوا عنها قال لهم تبع لتدخلنها فلما دخلوها أفرجت عنهم حتى إذا توسطوا أحاطت بهم وأحرقتهم فاسلم تبع وكان تبع رجلا صالحا أهـ وذكر أيضا في الطبري أن رجلا سأل عبد الله بن عمرو بن العاص: هل صحيح ما يزعم حمير أن تبعا منهم قال نعم والذي نفسي بيده أنه في العرب كالأنف بين العينين وقد كان منهم سبعون ملكا[1] وفي قبائل الزواوة وفي القاموس صنهاجة قوم بالمغرب من ولد صنهاجة الحميري وحاصل الأمر أن غالب الأقوال المتقدمة تثبت أن كتامة وصنهاجة من حمير وحمير ابن سبأ لأول بن يشجب بن يعرب بن قحطان وأن حميرا كثيرا الولد والنسل وفي السند الفريد: فولد حمير بن سبأ مالكا والهميسع وزيدا وأوسا وعرينا ووائلا ودرمى وكهلان وعميكرب ومسروحا ومرة رهط معد يكرب بن

[1] عقب (صحيفة 93)

النعمان القبلـي -الملك- الذي كان بحضرموت وثبت أن الزواوة من كتامة وصنهاجة كما تقدم بإجماع المؤرخين تقريبا ثم إذا أضفنا إلى ذلك حكم الاستعراب الذي لا ينخرم ولا ينهدم لما ثبت ان العدنانيين مستعربون لأنهم من ولد إسماعيل المستعرب فالنبي صلى الله عليه وسلم إذن من العرب المستعربة لأنه من ولد إسماعيل بن إبراهيم وبه تم الشرف للعدنانيين والقحطانيون أعرق في العربية من العدنانيين وهم بنوا هود عليه السلام كما تقدم وان حكم الاستعراب ينسحب على المتدين بالإسلام والمتخذ للقرآن وللعربية لسانا وسميا في معاملانه ومكاتباته ودراسته فالزواوة إذن عرب مستعربة وعرب عربا بأصلهم المتقدم ثم إن كثيرا من الأخلاق والعادات والطباع في البربر متماثلة ومتمازجة بطبائع العرب كاتخاذ البيوت من الشعر والوبر والطين والحجر والظعن والإقامة، وكسب الشاء، وحلق الرأس، والشجاعة، والكرم، والقرى، والانتجاع والارتياد، وركوب الخيل، وكسب النعم، الإبل والبقر، والغنم، إلى غير ذلك مما لا يكاد يستقرأ وكلها أحكام الاستعراب والله يحكم لا معقب لحكمه وهو جل شأنه سريع الحساب.

محامد الزواوة وخصائصهم

وأعني بالزواوة في هذا الباب المشهورين الآن بهذا الاسم قبائل الزواوة لا جملة قبائل كتامة وصنهاجة على طريقة الأصل الجغرافي كما تقدم أنم منبثون من طرابلس الغرب شمالا وجنوبا إلى المغرب الأقصى الذين منهم الشاوية والزناتة والملثمون وقبائل الحضرة فأقول: محامد الزواوة جمعهم أشتات محاسن العرب والعجم والبربر فتجدهم عربا في الشجاعة والكرم وشدة الأنفة والغيرة

وإباية الضيم وحماية الجار والذمار والمحافظة على الأعراض والتروع إلى الحرية إلى غير ذلك مما يلزم الفخر العربي كما ورد في الحديث "إذا سألتم الحوائج فاسألوا العرب فإنها تعطي ثلاث خصال كرم أحسابها واستحياء بعضها من بعض والمواساة لله" مع الأوصاف والعادات المتقدمة في آخر الفصل الذي قبل هذا. ونجدهم مثل العجم في الشؤون الاجتماعية والمدنية من الصنائع والحرف وسائر الأعمال كالزراعة والتجارة والكد والجد من أعمال اليد وبالأخص النظام والثبات في القتال صفا فهم في ذلك كله كما يصدق عليهم الحديث الوارد في العجم روي في الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه "تلى رسول الله صلى الله عليه وسلم سورة الجمعة فلما بلغ (وآخرين منهم لما يلحقوا بهم) قال له رجل يا رسول الله من هؤلاء الذين لما يلحقوا بنا فوضع رسول الله صلى الله عليه وسلم يده على سلمان رضي الله عنه فقال والذي نفسي بيد لو كان الإيمان بالثريا لتناوله رجال من هؤلاء وفي أخرى فارس" وعنه أيضا–أبي هريرة رضي الله عنه قال ذكرت الأعاجم عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال صلى الله عليه وسلم "لأنا بهم أو ببعضهم أوثق مني بكم أو ببعضكم"رواه الترمذي وعن المستورد القرشي رضي الله عنه قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول "تقوم الساعة والروم أكثر الناس قال عمرو بن العاص أبصر ما تقول قال أقول "سمعت من رسول الله صلى الله عليه وسلم قال إن قلت ذلك أن فيهم لخصالا أربعة إنهم لأحكم الناس عند فتنة وأسرعهم إفاقة عند مصيبة وأوشكهم كرة بعد فرة وأجبرهم لمسكين ويتيم وضعيف وخامسة حسنة جميلة وأمنعهم من ظلم الملوك" رواه مسلم.

قلت أود أن يعلم هذا الحديث ناس من العرب عرفتهم هنا بالجزائر وطننا هذا وفي الشام وفي مصر كثيروا الاستخفاف بالعجم من الروم والإفرنج وفارس والبربر ولا يرون لهم فضلا فأصمهم الله وأعمى أبصارهم الجهل والتعصب ولكم خاصمتهم وجادلتهم وجدلتهم فتمادوا في العناد والمماراة واحتججت عليهم بما لابن خلدون فأذوه وهو ميت فدافعت لهم لو كان ابن خلدون حيا ما تجاسرتم على مناظرته وما أحسن ما حكي عن ابن مالك صاحب الألفية فانه لما قال أن ألفيتة أفضل من ألفية ابن معطى الزواوي فقال" فائقة منها بألف بيت" توقف في هذا المصراع ولم يفتح عليه فرأى رجلا في المنام توسم منه العلم فقال له أنه أخذ في نظم ألفيته في النحو خير ألفية ابن معطى إلا انه توقف في المصراع الأول من رجزه ذلك فسأله الرجل كيف توقفت فقال قلت: فائقة منها بألف بيت" فقال له الرجل افتح عليك وقل "والحي قد يغلب ألف ميت"[1] أقول هذا ما أقول لجموع المغرورين وأمر بهم مر الكرام باللغو فإنهم لا قيمة لهم للجدال ولا للهجو ومن يضلل الله فلا هادي له ونذرهم في طغيانهم يعمهون وإنما يغيظنا يضلون الأمة العربية بإيهامهم أنهم غيورون على العرب يدافعون عنهم فينفعونهم وهم يضرونهم ذلك بأن طمس الحقائق من أكبر الغرور وأضره وفي مثل ذلك قال القائل:

هل تطمسون من السماء نجومها ... بأكفكم أو تسترون هلالها
أو تجحدون مقالة عن ربكم ... جبريل بلغها النبي فقالها
شهدت من الأنفال آخر آية ... بتراثكم فأردتم إبطالها

[1] فنبهه عند ذلك ابن مالك فرجع وقال: (وهو يسبق جائز تفصيلا........)

وتجدهم مثل البربر في شدة الحياء والمحافظة على العرض والصبر على الشدائد واحتمال المكاره والكد والجد في سبيل الأسرة (العائلة) والحياة الأهلية والجماعية والعصبية وذلك أن للبربر خصائل تذكر فتشكر فشيخ التاريخ العلامة ابن خلدون أبصر بهم لأنه تقلب في مواطنهم وتولى وظائف دولهم ونقب في بلادهم وضرب في عرضها وطولها كما تقدم فقال محامدهم: وأما تخلقهم بفضائل الإنسانية وتنافسهم في الخلال الحميدة وما جبلوا عليه مرفاة الشرف والرفعة بين الأمم ومدعاة المدح والثناء من الخلق من عز الجوار وحماية النزيل ورعي الذمة والوسائل والوفاء بالقول والعهد والصبر على المكاره والثبات في الشدائد وحسن الملكة والإغضاء عن العيون والتجافي عن الانتقام ورحمة المسكين وبر الكبير وتوقير الدين وحمل الكل وكسب المعدوم وقرى الضيف والإعانة على النوائب وعلو الهمة وإباية للضيم ومشاقة الدول ومقارعة الخطوب وغلاب الملوك وبيع النفوس من الله في نصر دينه فلهم في ذلك آثار ينقلها الخلف عن السلف لو كانت مسطورة لحفظ منها ما يكون أسوة لمتبعيه من الأمم أو حسبك ما اكتسبوا من حميدها واتصفوا به من شريفها أن قادتهم إلى مراقي العز وأوفت بهم على ثنايا الملك حتى علت على الأيدي أيديهم ومضت في الخلق بالبسط والقبض أحكامهم وكان مشاهيرهم بذلك من أهل الطبقة الأولى بلكين بن زيري الصنهاجي عامل افريقية للعبيديين ومحمد بن خزر والخير ابنه وعروبة بن يوسف الكتامي القائم بدعوة عبيد الله الشيعي ويوسف بن تاشفين ملك لمتونة بالمغرب وعبد المؤمن بن على شيخ الموحدين وصاحب الإمام المهدي إلى آخر ما عبر وخبر رحمه الله.

ومن محامد الزواوة الإذعان للشرائع المترلة والقوانين الوضعية والامتثـال لأوامر الله من الأحكـام الفقهية والانقياد إلى التحاكم إذا قال أحدهم لأحد تعال إلى النبي يعني إلى شريعة النبي ينقاد حالا ولا يتخلف ولا يستخف وإنما ولاهم في العهد الأخير أضلوهم وأفسدوا آدابهم وملكاهم وأساءوا التصرف فيهم فتبعة ذلك عليهم وذلك بأن من محاسنهم أيضا الانقياد للعلماء والشرفاء والمرابطين والصلحاء ويحترموهم ويخدموهم خدمة خالصـة ويلتزمـون لهـم بالعطايا من أرزاقهـم وأموالهم عن طيب نفس رجاء رضائهم بركاهـم وإن الزوايـا الكثيرة في بلادهم قيامها وقوامها منهم يخدم ملتهـم وتخصيصـات من أموالهم ولولا فساد التصرف وسوء الإدارة من أولياء الأمور لأنتج ذلـك رجالا في كل فن ولكن مصيبة سوء الإدارة وفساد التربيـة والتعلـيم الـتي أصابت العالم الإسلامي لم تخطئهم..

قف وتأمل وإن غالب الدول التي قامت دعواها بافريقية لم تك لتفوز لـولا تعضيد الزواوة لها كما تقدم. وأما خدمتهم للشرفاء وآل البيت فحـدث ولا حرج قال العلامة ابن خلـدون بايع البربر إدريس الأصغر حملا ثم رضيعا ثم فصيـلا إلى أن شب فبايعوه بمدينة (وليلى) وفي الاستقصا لأخبـار المغـرب الأقصى أن إدريس وفـدت عليه قبائل الزواوة والزواغة لينصروه أهـ قلت أن دولة الفاطميين التي قام بدعوها من تقدم ذكرهم فاندفعت بجحافلها لم تقف دون الإسكندرية ومصر والشام بل وصلوا الموصل وتعدوا إلى اليمن أصلهـم الأول، فكان ذلك بالقبيلتين العظيمتين كتامة وصنهاجة خدمة للفاطميين أولاد

فاطمة رضي الله عنهما ابنة محمد صلى الله عليه وسلم ففي ذلك السبيل اندفعوا سكارى وما هم بسكارى.

وأن الفتح الأول لأندلس كان بأحد عشر ألف من البربر بقيادة طارق بن زياد وموسى بن نصير ولقد أنقذوا عرب الأندلس مرارا فاحتلوه بأميرهم أمير المسلمين يوسف بن تاشفين الذي أجمع المؤرخون على فضله والإعجاب به حتى أن الإمام الغزالي تمنى الاجتماع به وجهز للسفر إليه. ومن أدلة شجاعتهم وخصائصهم في ذلك ما حكي المؤرخون بإسهاب وإطناب ثم أن الواقعة الأخيرة المشومة الملقبة بواقعة العقبان لم ينج منها بربري واحد شهدها وهلك معهم من إخوانهم عرب افريقية جمع كثير وكانت تلك المصيبة بخيانة عرب الأندلس ونذالتهم بسبب الحضارة الفاسدة وقد قال المؤرخون في تلك الواقعة ما إذا ذكر سكب الدمع والهمر وعلى أن عدد من استشهدوا بلغ ستمائه ألف أو يزيدون فقد وقع أجرهم على الله بسبب الخيانة وأن الله لا يهدي كيد الخائنين.

(فابكهم ما استطعت إن قليلا في عظيم من المصاب البكاء)

ومن محامد الزواوة الصراحة وحسن العهد إذا قالوا أو بايعوا أو عاهدوا وفوا فلا خيانة ولا عذو ولا خداع فكأن كل فرد منهم لقن:

(عروضي إذا جار الزمان ألجتها ولكن عرضي لا يباح وبي روح)

ولا يبالون بالقتل في سبيل ما تولوا من الأمور وترى كل واحد منهم يقول لسان حاله:

وإنا قوم لا نرى القتل سُبــة		إذا ما رأتــه عامر وسلــول

ومن محامد الزواوة إطعام البائس الفقير بقواعد ونظامات خاصــة عجيبــة بحيث لا يبيت الإنسان الأجنبي عندهم بلا شيء وعنايتهم بالأجنبي أكثر أيــا كان وتصرفهم في ذلك منتظم لم يكن عند أمة من الأمم ويترلون الضــيوف منازلهم على طريق السنة.

ومن محامدهم التحكيم ثم لا يجدون في أنفسهم حرجا مما قضى به الحكم بل يسلمون تسليما.

ومن محامدهم حسن ترتيب الكلام عند الخصام دعوى وجوابا وإن كانــوا كثيرين في القضيــة فلا يتكلم إلا اثنان واحد لكل فريق وليس فيهم شــيء من عيب أعراب افريقية الذين يتكلمون وفي الخصام كلهم دفعة واحدة فيكثر الوغى حتى لا يكــاد الحكــم يفقه شيئــا حسبما شهدنا ذلك في المحــاكم الشرعيــة إذ كنا في العدالة وهناك انتهينا إلى هذه الخصلة ذلك بأن الشــيء يعرف بضده.

ومن محامدهم الاجتماع والجماعة وذلك الأمر المدني العظيم الشأن ســواء كان الاجتماع للصلاة أم لشؤولهم الدنيوية والحال أن من أسرار الاجتمــاع للصلاة قضاء مصالح أخرى اجتماعية وترى أهل القرية مجتمعين كلما عــرض لهم شــأن ما ولهم في ذلك قوانين وضعية شرعية وعرفية لا يتهاون بها إذ يلزم لذلك ما يلزم من الجزاء الوفاق.

ومن محامدهــم بل غرائزهم الروح العسكرية والخدمة الجندية وتاريخهــم في ذلك لا يستوفــي وبما تقدم من الإشارة كفاية وبقي ذلك فيهم إلى اليــوم

مع ضعفهم إلى درجة الاضمحلال وقد اعترفت لهم فرنسا بذلك الفضل مثلما اعترفت لهم جميع الدول المتقدمة ومنذ التاريخ القديم العام وقد أسمت فرانسا فريقـا من جندها الشهير بالبسالة والإقـدام باسم الجند الـزواوي "زواف" بتحريف قليل تخليـدا لهذه المنقبة ولم تغمضها وقد اشتهروا في القـرن (11 و 12) هجري في تونس وكان ذلك أول إشهارهم مع وقـائعهم في ثـورتهم الأخيرة في سنة (1871 فتم عليهم الدسث).

ومن محامدهـم كثرة التناسل وحب الولد والشغف بذلك والعنايـة بـه إلى درجة يقلدون المرأة التي أذكرت نوعا على الحلي خاصا بالجبهة وما هو إلا وساما قديما موروثا غير محدث ولما حدثت بهذا الأمر العلامة الشـيخ طـاهر الزواوي الدمشقي تعجب كثيرا وأعجب به يعض الفضلاء المصـريين وقـد يتزوجون ويطلقون لمجرد الولد والعقب ويحزنون أشد الحزن للذي لا عقب له.

ومن محامدهـم العناية التامة بصلة الرحم والقرابة والنسب والصهر وذوي الأرحـام ويعتبرون الملائق النسبة والصداقة بأقل مناسبة ومشابهـة ويراعون الوداد وقد كانوا لا يؤذون قط من ذاقوا طعامه.

ويخشون العقاب الإلهي إن خان ذلك أو غدر والمعنى ينتظرون له ذلك وهي خصلة محمودة وأن أحدهم إذا كانت والدته من قوم يعدهم كلـهم أخوالـه فيحترمهم ويكرمهم أيما إكرام ويدعوهم أخوالي. وبالجملة محامدهم هم لا تعد وتحصى في مختصر كهذا وان ساعدنا الدهر ووجدنا المعين والناصر طولناه

وأما خصائصهـم فكثيرة أيضا فمنـها عدم نجاح تكون جمـع أو جنـس أو مذهب ديني أو غير ديني مع جمعهم وجنسهم وليس ذلك لاضطهاد كما قد

يتبادر بل بطبيعة حالهم من كثرة جموعهم وغلبة محيطهم وقد خطر ببالي الآن أنهم إنما سموا الزواوة لكثرة جموعهم إذ معنى زوى الشيء جمعه فهو زاو وأزوى جاء ومعه غيره ومن أجل ذلك يندغم فيهم من يساكنهم أو يجاورهم والمحيط غلاب بطبيعته لا يظلمه ولا يتعديه المقصودة سر الله في الوجود، ولهذا لا تجد في الزواوة يهوديا ولا نصرانيا ولا مذهبا غير مذهب مالك ولا قراءة غير قراءة ورش وقد كانوا في العقيدة سلفيين ثم شيعيين ثم أشعريين ومنها عدم نجاح مدينة عظيمة بقربهم وأخرى من بينهم بأن تكون تلك المدينة ذات قصور كبيرة وذلك لاستغنائهم عنها بدورهم وقراهم المتوسطة الكثيرة بلا تطاول في البنيان ومنها ظهورهم واشتهارهم في كل بلدة يحتلونها قديما وحديثا أما في القديم اعني منذ نزوحهم من اليمن كما تقدم فكانوا على جانب عظيم من القوة وكثرة الجموع ولكن الشهرة العظيمة حازوها في الإسلام وكان لهم الحظ الوافر في فتح الأندلس ووقائع ذلك الرجل العظيم يوسف بن تاشفين إذ عبر بهم مرارا إلى الأندلس وهم الذين نصروا إدريس الأكبر والأصغر وبهم قام أبو عبد الله الشيعي وبجموعهم احتل جوهر القائد الفاطمي مصر والإسكندرية وتأسست هنالك الفاطميين كما تقدم واشتهروا في العهد الأخير في تونس والشام واعتبروا في الشام بالمغاربة وأظن أن ذلك بدهاء المرحوم الأمير عبد القادر ذلك الرجل العظيم الذي يعرف كيفٌ يؤكل الكل الكتف فجمعهم باسم المغاربة اشمل واعم من اسم الزواوة ولو لم تكن نسبة غير الزواوة في الشام واحدا في المائة وقد اعتز بهم الأمير كما اعتز بهم قبله أبو عبد الله الشيعي والمعز لدين الله ومولاه القائد

جوهر فبهم دافع الأمـير عبد القادر سنة **1860** عـن قناصـل الـدول ونصارى الشام حين اغتر بعض الجهال والعوام من أهالي الشام وسلت لهـم أنفسهم أن يقوموا بمذبحة لا محل لها ولا مسوغ سـوى وسـاوس الشـيطان فعارض في ذلك الأمير أن خشي هو نفسه على نفسه ولكن جموع الـزواوة تجمهروا حوله فأطاعوه وتسلحوا إلى أن انجلت الواقعة فسلم الأمير ومن معه من قناصل الدول والمسيحيين ثم إن فرانسا التفتـت إلى الأمـير (**1**) أنظـر (صحيفة **159**).

فجازته خير جزاء فتحسنـت حالته ماديا وأدبيا وصار ذا مال وبين وملك قصورا وقـرى وأنجالـه من بعده كذلك لهم العنايـة والجاه إلى فرانسـا وإلى تركية ولا ينكـر ولا يماري إن أولاد الأمـير إنما كان عزهم وجاههـم وقهرهم لكثـير من البيوت والعصبيات بالزواوة الذين بدمشق ومـا حولـه لأنهم اشتهـروا هنالك باسم المغاربة والشجاعة والغلبة فإذا ركبوا الملاقـاة من يناوئهم لا يقـف أمامهم ولا يثبـت ثم إن الزواوة لجهلهـم السياسـة ومسالكها ولكونهم مثل العرب البدو قليلي التربية والتعليم في هـذا العهـد الأخير لم يحصلوا على شيء يذكر فيشكر بالرغم من وجود جملة من شرفائهم وأعيانهم. مثل (الشيخ المهدي وابن عمنا الشيخ المبارك والشيخ ابن أعراب)[1] الذين تقدمت لهم الشهرة في الزواوة وكذلك في الشام بصفة الصلاح والعلم

[1] جرت عادة الزواوة أن يلقبون سادتهم وأمرائهم بالمشايخ لأن عليهم صبغة دينية أكثر مما هي دنيوية فبهم أشبه بالمشايخ السنوسية هكذا كانت أصول الرئاسة في غالب بلاد المغرب.

والطريقة. وقد نبغ في هـذا العهد الأخير من رجال الزواوة بالشام وبغيرهـا من مدن سورية عدد غير قليل فمن أحفاد السادة المشايخ المشار إليهم أنفـا يليق بنا أن نذكر: العالم الفاضل التقي السيد الشيخ صالح المبارك نجلي المرحوم الأستاذ الكبير العلامة الشيخ الطيب المبارك وابن عمنا المرحوم العالم العلامـة والحبر الفهامة والسيد الشيخ محمد المبارك وابنه المحب السيد الشـيخ عبـد القادر الكاتب الأديب الشاعر من أحفاد سيدي الشيخ المبارك قـدس سـره والسيد الشيخ صالح بن أعراب وأنجاله النجباء خاصة منهم الأستاذ الفاضـل الواقف على عدة لغات والمؤلف بها وبغيرها من العلوم العصرية السيد محمـد سعيد الطيب بن أعراب بن أحفاد سيدي الشيخ ابن أعراب قـدس سـره. والشيخ محمد مزيان من أحفاد سيدي الشيخ المهدي قدس سره.

ومن سادة الزواوة وعلمائها بالشام المرحوم العالم العلامة الحكيم الأسـتاذ الكبير السيد الشيخ طاهر السمعوني الجزائري وسليم بك بـن أخ الأسـتاذ المشار إليـه العالم العصري الفاضل والذي كان بلغ رتبة قائم أركـان حرب في الجندية التركيـة والمرحوم العلامة الفقيه الأستاذ الأوحد للناشئة الـزواوة في دمشق سيدي الشيخ محمد سعيد شريف الينيوي وابن عمه العالم الرياضي الشهير السيد احمد جودت الينيوي والعالم الفاضل الورع السيد الشيخ شريف العقوبي والعالم العلامة التقي الأستاذ السيد الحاج احمد الشريف المقيم بقربـه الرملة وابنُ أخيه العالم الفاضل الطبيب السيد صالح الشريف القاطن بمدينـة يافا والدراكة الكاتـب علي بـك ابن الحافظ التقـي السيد الحج شـريف وخيري بك ابن السيد علي أبي حسـين من شرفاء بهلول وهو رتبة المـدعي

العمومي والسيد إبراهيم خالد المستنطق وعمر بك فرحات وأخوه الـدكتور حسن بك فرحات، والدكتور طاهر بك قاسم ومتعهد الإنشاءات الأميرية الشهير الحاج مزيان إيراثني وغيرهم من يطول ذكرهم ممن نبغوا في الصنائع والتجارة الخ. ومنها عدم تزوج الزواوة بالأجنبيات إلا نادرا إذا عنايتهم الشديدة في الزوج بالأصل والجاه العظيمين مع عادات لهم فصار ذلك غير ممكن لهم من الأجنبي ومنها عدم تزوجهم بالإماء السود تحشيا من تسويد نسلهم وتغييره وهذه خاصة عظيمة تذكر لهم فتشكر وقد خالفوا إخوانهم العرب فيها. نعم قد يوجد العبيد في بعض قرى الزواوة إلا أنهم لا يناكحون. ومنها الحياء الشديد وله قواعد عندهم محمودة تنطبق على المروءة والإنسانية الكاملة وبالأخص فيما بين أعضاء الأسرة والأقارب ذوي الأرحام فلا تسمع لهم كلمة فحش أو بذاءة ترى عورة من عوراتهم وذلك محظور عندهم بشدة وعناية تأمين وبالأخص في محضر النساء حتى أنه قد يكون دم المتفحش هدرا فإنهم يقتلون من ذلك وهو من القواعد المتعارفة عندهم وإن أحدهم إذا كانت معه امرأة يكون محترما هو والمرأة ولا يؤذى ولا يسمع ما يكره و(...كلمة غير واضحة في النسخة) الغناء، فالذي تعدى وفعل ذلك المحظور في عرفهم فدمه هدر وهذا من المدنية لراقية بمكان والسبب أن الغناء عندهم مستقبح لما فيه من أقوال الغزل والتشبيب وذكر النساء والعشق والوصال إلى غير ذلك مما يحرك النفوس إلى الشهوات ويسوقها إلى أسواق الشبهات وهم في مثل هذا مخالفون للعرب على خط مستقيم وقد ذم أبو حامد الغزالي الأدب العربي في هذا المقصد لما فيه من بواعث الفسق للشبان

وفساد أدب النفس بأدب الدرس المختلط بما يذكرنا من الفحش والتفاحش. ومن القرى في الزواوة من يمنعون المغنيين من الغناء ولو في الوليمة بسبب ما ذكر. لم أدر أن والدي رحمه الله ضربني غيره مرة واحدة وأنا يافع لأنه سمعني اغني مع الولدان، وأن الصبي إذا تلفظ بكلمة فحش يضرب عنها وكذلك الخدم وجميع الصغار، ويستحيون من كثرة الأكل ولهم في ذلك آداب وقواعد في مواضع فإنهم إذا رأوا أن الطعام قليل فلا يأكلون إلا قليلا. وإن كبراءهم وشرفائهم وأهل العلم منهم لا يأكلون في الأسواق ولا في الشوارع طبق القاعدة الإسلامية وأنها من لوزم العدالة والمروة ومنها شدة التحفظ من العار أن يصاب به الرجل أو امرأة والتشديد الزائد فوق التصور في أمر العهر فان الزناة عندهم يقتلون ولا يحاكمون ولا يشهد أنس ولا جان انه يوجد في أرض الزواوة قديما أو حديثا ابن مجهول الأب وذلك أن المرأة إذا وقع ونزل حملت من زنى فإنها لا تبقي بقيد الحياة إلى الوضع بل تقتل من أهلها وذريتها لأنها حملت لهم العار أو تنتحر هي بالتسمم فهي كما في المثل بيدها لا بيد عمرو وفي المعنى شدة الحياء والحياء من الإيمان قال فيهم الشاعر:

قوم لهم شرف العلى من حمير ... وإذا انتهوا صنهاجة فهم هموا
لما حووا إحراز كل فضيلة ... غلب الحياء عليهم فتلثموا

وعن ذكر الملثمين نقول: أنهم صنهاجيون وأنهم كانوا مضرب الأمثال في الشجاعة والإقدام وأنجبوا رجالا عظماء مثل يوسف من تاشفين رحمه الله فانه ملأ ذكره الأسماع، وصار تعظيمه والإعجاب به كلمة إجماع، بين المؤرخين المشارفة والمغاربة وكتبوا تاريخه بحبر الحبور، والأجدر أن يكتب

بسطور النور على نحور الحـــور وقد كان سلطان العدوتين في المغربين وتلقب بأمير المسلمين، وكفى أن حجة الإسلام أبا حامد الغزالي تمنى الاجتماع به كما تقدم.

ومنها الفوز في الوقائع فهم في ذلك إما الأمنية أو المنية دون القضية الـــتي يطلبوها ولا يفرون من الزحف وان الفرار عندهم عار (العار أكبر من النار).

ومنها أنهم لم تستول عليهم دولة من الدول قبل فرانسا فهذا فخر عظيم لهم كما قال الموسيو جول كامبون الوالي العام كان بالجزائر في خطبة له ألقاهـــا على الزواوة في بلدة الأربعا بني يراثن في سنة **1891** بان لم تضع دولة قدمها على تلك الجبال الشم آخر ما قال، قلت لا بد من غالب ومغلوب وان لكل شيء حدا ونهاية ثم أن الدولة الحالية التي استولت عليهم تحبهم وتميل بالعطف عليهـــم وتود أن يتمدنوا تمدنا عصريا وكثـــرت لهم من المدارس الابتدائيـــة في غالب القـــرى وصار النشء الجديد يحسن التكلم باللســـان الفرنســـاوي ويقرؤون ويكتبون ويزاولون كثيرا من الأشغال في المكاتب وسائر الأعمـــال ولكن ضعفهم المادي وشدة تمسكهـــم بعاداتهم وعرفهم القديـــم وما توارثوه من ذلكم ومن الديانـــة ومن الخلاف في الدين والأخلاق والمتقدمة ويـــزاد على ذلك سوء الظن المستحكم بينهم وبين المستعمرين والمتصـــرفين وبعـــض الأحكام في ذلك مثل الأحكام الأهلية التي اضطرت إليها الهيئة الحاكمة- كل ذلك يوسع خرق الراقع بالرغم من أن الحرب العمومية الأخيرة أثبتت لهـــم الإخلاص والوفاء وكلا الفريقين معذور ونرجو دائما التوفيق وحسن التفاهم، وعندي انه لا يكون ذلك إلا بكثرة المدارس العربية الصالحة للتفـــاهم فـــان

العربي المسلم لا يصلحه إلا العربية الصحيحة ومكارم أخلاقها المرضية وآدابها الجمة ودليلي على هذا استقرائي ما تيسر من المتعلمين تعلما فرنسويا بدون عربية فإنهم فريقان ففريق عدو ولدود لأهله وللحكومة والأمة المستعمرة ذلك بأنه لم يبق في حالة أهله ولم يبلغ إلى حالة معلمية وأسخطه الجميع وأسخطهم بسبب معاملات لا تخفى على المتأمل ومما يسخطه بكثير أنه متحير في جميع أقواله وأفعاله التي يتعذر عليه سلوك مسالكها أفيبقى مهانا ومعتزلا طول عمره الهيئتين الاجتماعيتين؟ وقد جربتهم أنهم إذا تلي عليهم كتاب عربي فصيح بليغ رشيق العبارة جيد المعنى بأسف أشد الأسف على ما فاته، وفريق راض ظاهرا ساخط باطنا لأنه لا يرضى بالإمتيازات والتفرقات لا (.......)* ويراه غبنا وخلاف الإنصاف ولا يكاد يدرك أن توزيع الأعمال في المجتمع الدولي لا بد له من التفاوت على حسب الأهلية وصلاحية مع شرطية التجنس المعروف قديما وحديثا ليس عند فرانسا فقط بل في الإسلام كان ذلك عندهم كذلك. وخير من هذين الفريقين عندي فريق ثالث وهو وسط وخير الأمور أوسطها كذا في الحديث وهذا الفريق هم المتعلمون التعليم العربي الواسع الصحيح وآدابه الكاملة كما تقدم فان أدب هؤلاء إذا تنوروا كما ينبغي يرضى المجتمع الأمة الحاكمة وحكومتها والأمة المحكومة وذلك أن الأهالي يتنورون بالعلوم العقلية والشرعية الصحيحة السليمة المنقاة من التعصبات القديمة المدسوسة والخرافات المحشوة مثل إبادة المختلف في الدين واعتباره عدوا كما يزعم الأوروبيون أن ذلك من الدين كلا بل هو

---

* كلمة غير واضحة في النسخة

من التعليم الفاسد المستحكم في الفريقين المسلمين والمسيحيين في الحروب الصليبية وتلاشت الآن وبقي الخلاف محصورا في دائرة أخرى اقتصادية -تنازع البقاء- وقد أدرك الناس شرقا وغربا أن أمور الدين محترمة بفضل عقلاء من أوروبا وأمريكا وإنما بقي أمر الاستخفاف بالعربي المسلم لمرضه الاجتماعي وسوء إدارته وتربيته وأنا ذلك العربي المسلم إلا أني قلت وما زلت ولن أزال أقول لا يبرئنا من هذا المرض غير التعليم الصحيح العربي الإسلامي وإلا فنبقى كلاّ على أوروبا فلا هي ترتاح ولا نحن نشقى والله ولي التوفيق.

ومن الشواهد على تفوق الزواوي في أشغاله وأعماله قديما وحديثا ما وقفت عليه في جريدة (السعادة) التي تطبع في المغرب الأقصى ترجم فيها فصل عن بعض كتاب فرانسا في هذه الحرب التي جعلت فرانسا بابل الألسن والأمم فقالت تلك الجريدة في عددها الصادر 16 فبراير سنة 1918: ويروى عن أحد كتاب فرانسا المشهورين في الكتابة وهو الموسيو جيثو أنه قال بأن صرف الرماة المغاربة والجزائريين والتونسيين الأشهر الطويلة بين الجنود الفرنساوية في ميدان القتال سوف يبدل أخلاق أولئك الرجال ويولد فيهم روح الهمة والنشاط فإذا ما رجعوا إلى بلادهم كانوا كمن حنكتهم التجارب وألفوا المتاعب وتذليل الصعاب كذلك العامل الذي صرف في مزاولة الأعمال بفرانسا مدة ستة أشهر على الأقل وذاق لذة الربح وتعود العمل لا يرجع إلى حياة الكسل التي كان ألفها بين الدواوير حيث كان يلتف باطمار الحائك البالية مدخنا الكيف -الحشيش- متوكلا والقمل يرعى تحت إبطه وقد خمل وبهل وكاد إن يكون قعيدة رحل وقد تعود العامل

في فرانسا الحياة المنتظمة أي الأشغال مدة معلومة من الساعات والراحة كذلك مدة معلومة وايلاف النظام يهذب الخلق ويقوم اعوجاجه، وقد ولد العمل في نفس العامل الإفريقي حب الربح فتراه حين يقبض أجرته منبسطا منشرحا يمتاز الزواوة -تأمل- والمغربي عن غيره أهـ باالحرف.

زوايا الزواوة وعلماؤهم

زوايا الزواوة كثيرة مشهورة ومعناها قديما وحديثا المدارس والمساجد وبعبارة أهل العصر الجامعات والكليات ومعنى الزاوية لغة هو جامعة جهة من جهات الدار فالمفهوم إذن من الزاوية موافق للفظ ثم مما يذكر بكل فخر أن تأسيس هذه الزوايا مع قدمها الذي يرجع إلى عصر لا مدنية فيه كما يقولون كان من الخواص والشرفاء والمرابطين الصلحاء اختيارا لا دخل للحكومات المتعاقبات عليها إلى اليوم ويا حبذا الأمر لو عزز بحسن الإدارة والحال أن نظم تأسيسها حسن جدا وإنما قصر النظر والتدبير أضاعا النتائج المرجوة وذلك أن الزاوية تعتبر مسجدا ومدرسة لله مجانا من حيث هي مسجد وأن المساجد لله باجرة طفيفة من حيث هي مدرسة للقرآن وطلبة العلم ولها دخل وخرج للنفقة والقيام بشؤون الطلبة والشيوخ والمدرسين ومن قواعد الانتساب إليها والسكنى بها أن يدفع الطالب قدرا صغيرا من الدراهم ثم هو لا يدفع شيئا بعد ذلك إلا تطوعا ولو مكث فيها مدة عمره كله وأما غير طلبة العلم من المسافرين والزائرين والمصلين فلا يدفعون شيئا (......)* وإن

* كلمة غير واضحة في النسخة

الزائرين والمسافرين يأكلون ويشربون مجانا وليس ذلك للمصلين من الأهـــالي المقيمين إلا الفقـــراء منهم وبعض السخفاء الطفيليين ولكل زاويـــة أهلـــها يتصرفون فيها حسب أصول تأسيسها خلفا عن خلف فالزوايا على هذا المعنى نظمية اجتماعية مدنية لو لم يعوزها حسن الإدارة والإصلاح الـــذي يقتضـــيه الحال والطبع إذ لا فرق بين هذه الزوايا ومؤسسات الجمعيات والشـــركات العلمية الخيرية المقامة بأوربا وأمريكا بأموال أولي البر من الوصايا والأوقـــاف ونحو ذلك فزوايا الزواوة كذلك دخلها من أولي البر والصلاح الملتزمين بعطايا من أرزاقهم وكسبهم للمؤسس الصالح المرجوة بركته ومن هذه الحيثية تعذر على الحكومات التداخل في شأنها والحق كذلك لأن الأعمال الخيرية كهذه لا ينبغي بل لا يمكن التداخل فيها (....) لكيلا يسخط الرأي العام في أمر معتقد صلاحا دينيا فإن المتبرعين إنما تبرعوا خدمة للعلم والصلاح الموصلين إلى رضاء الله وإن لم يفعلوا يخشوا سخط الله وبهذا المعنى يوجد الفرق بينهم وبـــين أولى البر من أوروبا وأمريكـــا فيقال مع الفارق بينهما عموم وخصـــوص منهجي فتنفرد جمعيات أوروبا وأمريكا بقصد التعليم على وجه خاص وتنفرد زوايـــا الزواوة بقصد خدمة العلم وإرضاءا لله فهذه القاعدة المتضمنة للعقيدة أمـــتن وقد يقال أن بينهما عموما وخصوصا بإطلاق وإنما امتازت مـــدارس أوروبـــا وأمريكا بحسن الإدارة وسداد الرأي والنظر وعـــدم الجمـــود وبالجملـــة إن للزواوة والبربـــر في هذا الشأن فضل السبق يذكر فيشكر ولمثل هذا أسهب العلامة ابن خلدون رحمه الله واسترسل في الثناء على البربر كما تقدم وهو ممن ضربوا في أرضهم ومواطنهم وأحق بالشهادة عليهم كما قدمنا ولـــيس ابـــن

خلــدون بالمؤرخ الذي يجازف بالقول كيف وقد سبق له أنه انتقد المــؤرخين في المعنى. ثم أن خدمة الزواوة للعربية بناءا على أهم عجم بســبب الــوطن واللسان البربرين فإنهم إذا قرنوا بغيرهم من الأمم الإسلامية يعادلهم (......)* كما ذكرت في رسالتي الفرق بين المشارقة والمغاربة[1] (...) وبهذه الزوايا كثر علماء الزواوة قديما وتخرج منها فطاحل إذ ذكروا يفخر ويرفع رأسه شــرفا وتيها وكذلك بطبيعة الحال يقتضي أن يكثر علماء الزواوة لموقعهم الجغــرافي فإن إحدى عواصمهــم "بجاية" وكانت حاضرة وميناء من مــوانئ الحــرب للأساطيل الأندلسية وكانت قرى الزواوة إذ ذاك لا تعد ولا تحصــى ويبلــغ عدد جموعهم الملايين.

هذا وكان من المناسب رسم خريطة بلاد الزواوة الجغرافية هنا وذكر القرى والقبائــل بأسمائها وترجمة جمهور من علمائهم وأسماء الزوايا الــتي ينتســبون إليــها من أين مهب صباهم ومدب صباهم ولم يخف ذلك كله علــي وإنمــا تعذر. وكذلك ذكر أيامهم ووقائعهم وذكر ذوي البيوتات العظام، والأعيان الكرام، وما قيــل في ذلك كله الإلمام بلسانهم الذي قــد كلفــني الأســتاذ المرحوم الشيخ طاهــر السمعوني أبو عيسى ثم الدمشقي الشامي الشــهير أن أجمل له بعض القواعد للخطاب وبعض الأصول، كان هو وابن عمنا المرحوم الشيخ محمد المبارك الزواوي الدمشقي قد عزما على ذلك فتوقفا ولما لم تسعن

* كلمة غير واضحة في النسخة

[1] من أن الأمم العجمية الثلاث فارسا وبربرا وتركا زادوا قوة في الإسلام إلا أن الأتراك قصروا في خدمة العربية تقصيرا فاحشا خلاف فارس والبربر فإنهم خدموا العربية مثل العرب وزيادة كما قدمنا

مخالفته كتبت عدة مقالات في الموضوع في المجلة السلفية بمصر ولكني رأيت أن ذلك كله أمر ثنوي مهم لا محالة إلا أن ما أنا بصدده من العناية بالنسب والتاريخ والإصلاح أهم وأكد خصوصا أنه من أغرب الغرائب لم يتقدم شيء من ذلك سوى تراجم علمائنا المتفرقة في الكتب وفي كتاب عنوان الدراية للغبريني في علماء بجاية والمراد بهم علماء الزواوة جملة وافرة وساعد ذلك أي تراجم العلماء فهو مطوي وليس بصواب وتقدم ذكر أسفنا على إهمال المتأخرين أمر التاريخ ولكن الزواوة لم يكتب شيء عن تاريخهم بالخصوص أظن أنه باعتبارهم من العرب فتابع لتاريخ العرب وباعتبارهم من البربر كذلك وكيفما كان الحال فلابد من تخصيصهم بتاريخ لشهرتهم ومقتضى الحال لذلك لما هنالك من المصالح وعلى الأخص بيان نسبهم الواجب لمطاعن وجهت من الجهال إليهم وقذف في حسبهم والغض من كرامتهم في عصرنا هذا هذا وإن استخف بذلك أعني التاريخ والمتقدمين فنحن أكبرناه وإن الأزمان مختلفة والأحوال متباينة، وأن الشاهد يرى ما لا يرى الغائب، والناقد بصير، وعلى هذا فلا يورد على أن هذه الصحف القليلة وإن هي مكرمة فلا تعد تاريخا فإن قبل بذلك قلت إن العبرة في المعنى والإفادة والخدمة الجليلة فإن مصنف الأجرومية لمحمد بن داود الصنهاجي أخ الزواوة وصغير الحجم، لكن لم يؤلف مثله في النحو كذلك مقدمة السنوسي في التوحيد، وبالخصوص أن كتابي هذا أول كتاب في الموضوع على ما أظن وأما الجمع واللم والحشو فغير خاف عني ولا حاجة لي به، ولا للناس فيه فائدة، كيف وقد سبرت غور الأمس واليوم، وعلمت من ذلك ما يستحق السوم، وكذلك الزواوة

المخاطبين بهذا يعلمون المطلوب والمرغوب من هذا التاريخ أن النسب والفضائل والخصائل والمحامد وغير ذلك مما يقتدى به، وينشط ذوي الهمم إلى الإتيان بمثله، ويبعث ذا العزائم على التحلي بحليه، ويرشد أولي الأمر إلى التنافس في خلاله، وبالتالي هدم الاستسلام لبعض الخرافات والأوهام، ونحو ذلك مما يحاجون به من الجهال والحساد والطعن في النسب وفي الدين وفي المروءة وسائر الأعمال التي يغضون بها كرامتهم وقد سمعنا بأذننا هذه أن الزواوة رومان وأبناء طالوت وجالوت إلى غير ذلك من القذائف السامة، والغازات الخانقة، والنيران السائلة، التي يرميها إليهم أجلاف من أعراب الوطن، وسخفاء العقول من حضر المدن، الذين لم يعمل فيهم القرآن ولا السلطان، وقال تعالى: ﴿يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم﴾ وأن عقولهم محجورة ومحجوبة عن فهم سورة الحجرات وفي قلوبه أكنة وفي أذانهم وقر، فأبوا إلا أن دعوة الجاهلية الخبيثة كما في صحيح البخاري "دعوها فإنها خبيثة" ورأينا بأعيننا هذه أعينا تزدري الزواوة ولا تبالي ولو تلونا عليهم "ولا أقول للذين تزدري أعينهم لن يؤتيهم الله خيرا وإذا مروا بهم يتغامزون"، ونحو ذلك من التصريح والتلويح والتعريض كقول العامة في القطر النبي عربي ولم يدر الجهول أنه آذى النبي والإسلام بقوله ذلك تعريضا وتعنيفا فإن السامع الجاهل مثله يقول له إذا كان النبي للعرب فقط وإليهم بعث بالخصوص فلا يلزمنا الإيمان به ولا العمل بشريعته وأهل العلم منا يقولون لهؤلاء الأرذال المجادلين بالباطل إن هذه الدعوى التي تدعونها من الخصوصية والأفضلية

ليست من الإسلام في شيء إنما هو من دعوى اليهود في اليهودية وذلــك أن غير اليهودي إذا هود لا تكون له درجة اليهودي في الأفضلية بلغ مـا بلــغ والإسلام نادى بالمساواة والإخاء والحرية التامات وأن درجة بلال الحبشــي البربري وسلمان الفارسي وصهيب قد لا يبلغها كثير من قريش وقال صــلى الله عليه وسلم (سلمان منا) وقال: "نعم العبد صهيب لو لم يخف الله لم يعصه"[1] وتقدم قوله صلى الله عليه وسلــم في العجم وقال في الروم: "والــروم ذات قرون كما هلك قرن خلفه قرن، وهم أهل صخر وبحر هيهات آخر الــدهر" من حديث طويل والمعنى أن الروم رجال عظام ولكن العرب العوام بل وغــير العوام مغرورون ومخدوعون كما قدمنا هذا الكلام حين ذكرنا العجم وحقه أن يراجع ويحرر بماء العسجد وإني أقول ما قال ابن عباس رضي الله عنه لرجــل شتمه: أتشتمني وفي ثلاث خصال أني لأسمع بالحاكم من حكام المسلمين بعدل في حكمه فأحبه ولعلي لا أقاضي إليه أبدا وإني لأسمع بالغيث يصيــب البلاد من بلاد المسلمين فأفرح به وما لي بها من سائمة ولا راعية وإني لآتي على آية من كتاب الله تعالى فوددت إن المسلمين كلهم يعلمون منها مثل ما أعلم أهــ هذا ما نقول للذين يقولون أقــوالا ولا يعرفونها وإن قيل هاتــوا حققــوا لم يحققوا.

[1] نعم فقد انحط الزواوة في هذا العهد الأخير انحطاطا يؤسف له ولكنهم كسائر الأمم الإسلامية الشرقية المصابة في نظامها وتعاليمها المخالفة لمقتضى الحال العصرية من اندفاع الأمة كلها شرقا وغربا إلى التصوف فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين وفي السياسة والعلوم العصرية ومعارفها التجارية والكيمياوية وسائر المعارف.

وفي كتب التاريخ والرحلات والتراجم ألوف من علماء الزواوة أرى جمعهم على حدة وفي الديباج لإبن فرحون ونيل الابتهاج وعنوان الدراية وابن خلكان والسخاوي عدد معتبر ومنهم من تولى القضاء والتدريس في مصر والشام مثل عيسى أبي الروح الزواوي الحميري المنكلاتي وقد أشار هو رحمه الله إلى أن الزواوة من حمير لأنه انتسب كذلك كما في الديباج ونص ذلك: عيسى أبو الروح ابن مسعود بن المنصور بن يحي بن يونس بن يانيو[1] بن عبد الله بن أبي حاج المنكلاتي الحميري الزواوي وقدم الإسكندرية وتفقه بعا ثم رحل إلى قابس فأقام بها مدة يسيرة ثم رحل إلى القاهرة فأقام بها يشغل الناس بالعلوم بالجامع الأزهر وسمع كتب الحديث الستة وحدث عن شرف الدين الدمياطي وولي نيابة القضاء بدمشق نحو سنتين ثم رجع إلى الديار المصرية فولي نيابة القضاء بها عن قاضي القضاة زين الدين مخلوف المالكي ثم من بعده عن قاضي القضاة زين الدين المخوفي المالكي، ولي تدريس المالكية بمصر بزاوية المالكية وترك ولاية الحكم أقبل على الاشتغال والتصنيف فشرح صحيح مسلم في إثني عشر مجلدا وسماه -إكمال الأعمال- ثم إن صاحب الديباج قال إن قبيلة آيت منكلات قبيلة من العرب قلت إن آيت منكلات في وسط القبائل التي تقدم ذكرها وفلنا أنها من الأذواء الحميرية ثم إن الزواوة علماءهم وعاميتهم لا يعلمون الفرق بين آيت منكلات وغيرهم من القبائل، كلها متجاورات وحالها واحد وما ذكره ابن فرحون هو من قبيل ما حررنا في نسب الزواوة وكذلك عيسى أبو الروح في انتسابه إلى حمير بقوله الحميري. وممن

[1] لعله نسبة إلى بني يني قبيلة فينسبه إليها بلغة الزواوة -يانيو- بياء وألف ونون مكسورة وياء وواو ساكنة.

تولوا القضاء والتدريس بالشام ومصر العلامة ابن معطي الزواوي صاحب الألفية ومن النوابغ العظام جماعة من قبيلة (إمشدالن) مثل عمران وناصر الدين وأما محمد بن محمد بن قاسم فقد أعجب به جلال الدين السيوطي فقال فيه ما لفظه: هو محمد بن محمد بن محمد بن أبي القاسم ولد بعد عشرين وثمانمائة واشتغل في الفنون على والده ومشايخ بلده في أنواع العلوم العقلية والنقلية واتسعت مداركه وبرز على أقرانه بل وعلى مشائخه وشاع ذكره وملأ الأسماع، وصار كلمة إجماع، وكان أعجوبة الزمان في الحفظ والذكاء والفهم ولوقد الذهن... إلخ، قلت إذا كان جلال الدين السيوطي الذي قال عن نفسه: لا أعلم أحدا على وجه الأرض أعلم مني في العربية والحديث إلا أن يكون قطبا أو غوثا والخضر. يقول بهذا الإعجاب في شاب من شبان الزواوة فما ظننا بغيره ولهذا اقتصرنا على هذا في هذا الباب وبه كفاية لذوي الألباب.

بعض عادات الزواوة

يحار العاقل في أمر العادات عند الأمم عموما وعند المسلمين خصوصا واشتكى من ذلك أولو العلم من جميع الأمم والنحل: ذلك بأن من العادات ما لا يوافق الشرائع السماوية ومنها ما لا يوافق الذوق السليم كثقب الأنف وجعل الخرص فيه وتسويد الأسنان والشفتين بالوسام وجعل الرجلين في قالب خاص لتبقيا صغيرتين وهلم جرا مما لا يستقصى[1] ومنها ما ليس بلازم، ومنها

[1] وليس شيء مما تقدم عند الزواوة وإنما سقناه تمهيدا فقط ما عدا الوشام فهم مثل العرب

ما هو مستحسن غير لازم، ومنها ما هو مستحسن ولازم، والناس أعلق من العلق بالعادات وقد جاء الإسلام العزيز بالضرب عن المخالف من العادات وإقرار الموافق فترك الناس بعض ذلك حينا من الدهر فرجعوا إليها بل أحدثوا زيادة بزيادة الأيام بالرغم من مناداة الفحول من العلماء والمصلحين بإنكار ذلك. هذا ولابد من ذكره ما يتيسر من العادات المستحسنة والمستهجنة في الزواوة فنقول:

من العادات المستحسنة في الزواوة انقياد الخصم والرضا بالتحكيم إلى أي حكم ثم الرضا بما حكم به له أو عليه ثم لا يجد في نفسه حرجا مما قضى به الحكم ويسلمه تسليما.

ومنها عدم التحكيم فيما تعلق بالعرض والشرف وليس في ذلك عندهم سوى القتل والانتقام لشرفه كلفه ذلك ما كلفه وإنه العار عندهم أن يقع التحكيم في ذلك وهو خلاف الشرع أحسنوا في الأولى وأساءوا في الثانية.

ومنها اتخاذ كل قرية ذات جماعة صغيرة أو كبيرة إماما ومعلما ولكن لا يتعلم سوى أبناء الشرفاء والمرابطين وكذلك في زواياهم المتقدم ذكرها إلى هذا العهد وهي عادة فاسدة مضرة في الهيئة الاجتماعية لو انتبهوا، ذلك بأن جهل الجهلاء مثل مرض المعدي خصوصا أن الأكثرية لغير المتعلمين ومنهم يتألف المحيط وبالطبع إن التأثير للمحيط والأغلبية وكأنهم أخذوها عن أوروبا القديمة فإنّ العلم محتكر عندهم للرهبان والملوك وأبناء الملوك ولكن أوروبا قد انتبهوا فضربوا عنها وهذا هو الفرق بيننا وبين أوروبا فإنهم ينتبهون ويرجعون أما نحن فمتمادون في سبات عميق فلا انتباه ولا رجوع ﴿بل

قالوا أنا وجدنـــا....﴾ الآية. ولكن لم يبلغنا أنها احتكارية أوهناك أدنى مـــانع غير العادة وكيفما كان الحال فهي ذميمة يجب الإقلاع عنها شرعا وطبعـــا إذ طلب العلم فريضة على كل مسلم كما في الحديـــث الشريف وكما قالوا أن الإنفاق في كل شيء يستلزم النقصان إلا في العلم فإنه يستلزم الزيادة.

ومنها عدم حجاب من غير نساء المرابطين والشرفاء وأخيرا نساء العلمـــاء فقط ولكن مسألة الحجاب عندنا معشر المسلمين قد لا يفصل فيها غير عمـــر بن الخطاب رضي الله عنه والقرآن يترل فيقول عمر ما قال في الخمر اللـــهم زدنا بيانا وافيا ذلك بأنا لم نفهم الحجاب المذكور في القرآن إلى الآن ففريـــق يقول بحبس المرأة في بيـــت مظلم وغلق الباب عليها وأخذ المفتاح في جيبـــه وأن لا تـــرى ولا ترى ولا تخاطـــب ولا تخاطب وأنهـــا وصـــوتها ولباســـها وعجرها وبجرها عورة وهذا حكم الغيرة لا الشريعة ولا الطبيعة لأن منـــاف للصحة والمصلحة الحيوية والطبيعة العمرانية فالحجاب مثل هذا ايذان بالجمود والفناء والتعطيل وقد كان من نيتي وطبيعتي قبل أن أعرف الفرق بين الأمس واليوم، وقبل أن أرشد وأحسن العوم، وقبل أن تضطرني طبيعة الحيـــاة بـــل القضاء والقدر، إلى الضرب في الأرض وأنا تارة مخير وتارة مســـير، وقلـــت لبعض العارفين في الموضوع ذات يوم أي ابن العـــم والله إني لأود أن تكـــون والدتي العزيزة الشريفة المسلمة وأختي الشقيقة المسلمة وامرأتي وابنتي أما فوق هذا السماء أو تحت هذه الأرض وأن لا تذكر قط، فضلا عن أن تنظر، ولكني عبثا حاولت، وطبيعة حارت، وسنة كونية خالفت، أقرأت القرآن ووجـــدت فيه أن ابنتي شعيب ذهبتا في رعي الغنم وفي الماء واجتمع موسى بهما وتـــزوج

إحداهما وأنه لما جاء بزوجته قاصدا مصر طلب نارا ليوقدها لها لعلها تصطلي فذهل عنها بما لقي من الأقدار الإلهية ورجعت زوجته مع الرعاة من أهل مدين فاتل الآية ﴿فلما توجه تلقاء مدين قال عسى ربي أن يهديني سواء السبيل ولما ورد ماء مدين وجد عليه أمة من الناس يسقون ووجد من دونهم امرأتين تذودان قال ما خطبكما قالتا لا نسقي حتى يصدر الرعاء وأبونا شيخ كبير...﴾ إلخ الآيات. وتذكر أن محمد صلى الله عليه وسلم لما عزم على السفر صحبة أزواجه كلهن أو بعضهن حسب مقتضيات الأحوال وقد آذوه في سيدة نسائه عائشة رضي الله عنها بالكذب والبهتان إلى أن أنزل الله في القضية القرآن بالبراءة فاتل ﴿إن الذين جاءوا بالإفك عصبة منكم لا تحسبوه شرا لكم بل هو خير لكم...﴾ إلخ الآية وضربت في الأرض بناته فزينب خرجت من مكة في طلب أبيها بالمدينة وتناولها زوجها وذوو زوجها بالخصام والشجار فأسقطوها من على الجمل فأجهضت حتى كان لها ذلك سبب الهلاك بعد أعوام قليلة وهاجرت ابنته رقية مع زوجها عثمان إلى الحبش وكان العامة من الحبش يتعرضون لها ويقولون بعضهم لبعض تعالوا تروا ابنة النبي العربي ما أجملها إلى أن اشتكت إلى الحكومة الحبشية النصرانية وتذكر قضية أبينا إبراهيم عليه السلام مع فرعونه الذي عزم على أن يجبره ليعطي له زوجته سارة لأنه ذكرها له أنها أخته والقضية مشهورة في كتب السير والتاريخ ولكن إخواننا المسلمون أبو الإخاء ذكرت أولا وتمنيت ثانيا وهو محال عند العارفين فإن الله تعالى لم يرد أن يجري ذلك بل أراد أن يجري الحق والدفاع عنه ونتبع نحن ذلك ولا يتبع هو جل شأنه ما نريد من الأهواء اقرأ

﴿ولو اتبع الحق أهواءهم لفسدت السماوات والأرض﴾. وبالجملة فقد حررت ما تيسر في الموضوع في كتابي "مرآة المرأة المسلمة" وأزيد هنا أني لم أنكر الحجاب وإنما أردت الحجاب الشرعي بأن تختلط ولا تختلي امرأة أجنبية بأجنبي وأن يغلب الحجاب المعنوي على المادي أولى وأصوب وأسهل وأفيد وأن تحسن التربية والتعليم ببيان الفضيلة والرذيلة ونحو ذلك من الأخلاق الحسنة والعقائد الصحيحة.

ومنها احترام المرأة والعناية الشديدة عندهم بعدم مخاطبتها أو أحرى إذايتها وعدم ذكرها باسمها لأهلها أو زوجها.

ومنها تخلف المرأة في المشي إذا كانت مع الرجال وكذلك في الركوب وفي الصلاة وهذا موافق للشرع وللذوق ولكن تخلفها في الأكل والشرب طبيعة خلاف الشرع وخلاف المدنية.

ومنها تشغيل النساء في أعمال خارج البيت عدى الشرفاء والعلماء وقضية تشغيل النساء في الأمم وعند العرب بالخصوص فيها تفصيل أظن أنه يوافق الشرع العزيز على العادات التي لا حرمة فيها ويباح ما تضطر إليه الحياة كسقي الماء والاحتطاب والبيع والشراء وغير ذلك.

ومنها صعوبة الطلاق بما يشبه امتلاك المرأة وقد لا يفيد الخلع ولا الجبر ولا التحكيم وقد قدمنا أن التحكيم الذي هو عندهم مقبول لأدنى شيء إلا فيما يختص بالعرض وفي هذه من المنكر والقسوة ما يسخط الله ورسوله فلله در القائل:

والظلم من شيم النفوس فإن تجد ذا عفة فلعلة لا يظلم

بل وصف الله تعالى قلوب صنف من عباده بقوله وهو أصدق القائلين: ﴿ثم قست قلوبهم من بعد ذلك فهي كالحجارة أو أشد قسوة وإن من الحجارة لما يتفجر منه الأنهار وإن منها لما يشقق فيخرج منها الماء وإن منها لما يهبط من خشية الله﴾. والحال أنه ليس من الشهامة إمساك المرأة جبرا يحبها وهي تبغضه ولا من الكرامة إذايتها، فسحقا وتعسا لرجل لا تحبه امرأته وهو ممسك لها، لبئس الحياة حياته.

ومنها عدم توريث قبائل تيزي وزو النساء بخلاف قسم بجاية وسبب عدم توريث في القسم الأول أنه على ما حدثني والدي رحمه الله طارئ بعد وباء أوائل القرن السابع هلك فيه الكثير من العلماء فاتفقوا على أن يتولى العاصب ارث المخلف ويلتزم بالقيام بحقوق النساء وحمايتهن والنفقة عليهن ولو لم يترك لهن وليهن شيئا بدعوى أنه له الحق التداخل لما عسى أن يصيبه من المعسرة إلى غير ذلك من الأسباب ووجده مكتوبا أي هذا الاتفاق في دفتر لما كان شيخا في قرية -تافة نيث يحي- وذكر هذا الأمر الشيخ الحسين الورتلاني الشهير بالصلاح أنه حدث في القرن الثامن فقط وهذا يؤيد ما رويته عن الوالد قلت وكيفما كان لا يجوز مخالفة ركن عظيم في الشريعة كهذا لأنه بمقتضى الآية ويظهر لي أخيرا أنهم يعملون ذلك محافظة على تقسيم التركة وتبديد الثروة وكذلك يحكى عن الإنجليز ونقول لهم: (أنتم أعلم أم الله).

ومنها عدمُ تحاكم الزوجين إلى القاضي ولا إلى العالم يحكمون العرف في شأن الزوجية والعرف عندهم غير محدود وأكثر القبائل كما قدمنا قلما أن يتساهل في أخذ الخلع ولو بأضعاف ما بذل من الصداق ويعطلها مدة الحياة ولا يجبر

في أمثال هذه فإذا أجبره قتله لأنه يرى ذلك اعتداءا على حقه وعرضه ولا يقبل عقله أن الشريعة هي التي أجبرته لما رسخ في ذهنه أن امرأته خلص ملكه لا يشاركه فيها أحد من العالمين فالذي يطلقها عليه شاركه فيها وهذا من التعاليم المتوارثة ونشأ عن قلة الإرشاد والوعظ ولم نجد من المتأخرين من يقوم بتدريس علم الأخلاق ويحسن تقويم المعوج منها فإن سادتنا المتصوفة مكتفون بأن من أخذ طريقتهم لا تتعدى عليه النار ويكتفون عن جبال كهذه وكذلك يفدونهم بذكر لا إله إلا الله سبعين ألف مرة وبصلاة آخر الجمعة من رمضان وجهلوا أن المقيم على الكبيرة لا يفيده ما ذكر إن لم يتب ويقلع على أن لا يعود و أن الإيمان والإسلام وأقوال وأعمال.

و فسر الإيمان بالتصديق والنطق فيه الخلف بالتحقيق
وقيل شرط كالعمل وقيل بل شطر و الإسلام الشرعي بالعمل

وقولنا القاضي نيابة عن الشريعة إلخ ما تقدم ذكرنا أن نقول أن القضاء ركن عظيم في الشريعة الإسلامية ولكنه مصاب برجال حولوه لا يستحقون ولاية الكنس والرش للشوارع ولا وقادين في الحمامات ولا بوابين للحانات كما يعلم هذا الخاص والعام والمصاب العظيم في الأمر العظيم لذا القضاء خطة عظيمة تستلزم التبحر في العلوم الشرعية والعدالة التامة بلا أدنى فسق ليكون نقيا وزاهدا فإن نص خليل في مذهبنا المالكي على حرمة تولية الجاهل وطالب دنيا فإذا بأكثرهم ممن عرفناهم أفسق من قردة فلا صلاة ولا زكاة ولا حج ولا عفة فإن بعضهم ينشد لسان حاله:

(و كنت امرء من جند إبليس فارتقي

بي الدهر حتى صار ابليس من جندي

فلو مات قبلي كنت أحسن بعـــده

طرائق فســـق ليس يحسنها بعـــدي)

ومن عادات الزواوة عدم مصاهرة الشرفاء والمـــرابطين لغيرهـــم نعـــم إن الكفاءة معتبرة في الإسلام ولكن من الزوج أن تكون كفؤا للمرأة لا العكس والزواوة عمموا وهذا تشديد لا يليق.

ومنها أنهـــم إذا اقتتلوا أو تشاجروا فإن الشريف أو العالم الصالح يكـــون في الحياد التام ويدخل بين صوف المتقاتلين للصلح ويدفع ذلك باليد وذا باليد ولا يجدون في أنفسهم شيئا ولا يؤذونه ولا يعارضونه وقد رأيت والدي رحمه الله في قرية صوامع في بني بوشعايب في وسط معمعة في سنة 1869م وأنا ابن أربع سنيـــن داخلا علينا وهو رحمه الله ملطخ بالدماء وأنا وأختي وأخته عمتي ووالدتي نبكي فأهدأ من روعـــنا وقال لا تبكوا مرة أخرى إذا رأيتموني بـــين المقتتلين فإنهم لا يؤذونني لأني داخـــل مصلحا لا مقاتلا وما يصيبني من الدم إنما هو لتناولـــي الجرحى ودفع الأقوياء عن الضعفاء إلخ. قلت أن عادة كهذه من المدنية بمكان ويجدر أن تسطر بماء الذهب فإن جمعية الصليب الأحمر الـــتي أسستها دولى أوروبا منذ أمد غير بعيد لم تكن بهذه المثابة في هـــذه الحـــرب الأخيرة وكذلك قداسة البابا لم يحترمه المقتتلون هذا الاحترام في هذه الحـــرب بل كادوا يتهمونه بالانحياز والميل إلى فريق دون فريق والحال أن مقامه عندهم مقام العصمة.

ومنها أن الشرفـاء والصلحـاء في الزواوة يفصلـون في الدماء ويحكمون في قضاياها ولا إعادة فيها ويعتبرون ذلك حكما ربانيا حتى إذا خالفهم أحـد فدعوتهم عيه أو له مقبولة وهكذا شـأن الـزواوة في الانقيـاد لللشـرفاء والصلحـاء والعلماء وتقدم أنهم انقادوا لـدعوة الإدريسـيين والفـاطميين الشيعيين فهذه العادة التي قبلها وغيرهما من امتثالهم يحق أن تكون من المعلقات التي يفتخر بها الخلف بالسلف لو يعتني القوم بهذه المحامد ويتنافسون في خلالها ويطرحون الخلال الشائنة.

ومنها عف اللحية وينكرون أشد الإنكار حلقها ويضربون المثل في المغالطة فيقولون في المخدوع حلقوا له لحيته والمعنى أنه مغفل ولكن منذ مدة يسـيرة سرت إليهم عادة حلق اللحية التي عمت الآن العالم الإسلامي وهـي مخالفـة للقواعد العربيـة من أخلاقهم وللسنـة النبوية وعمل السلف الصالح وقال النسابـة ابن الكلبـي كان العرب خاصة عشر خال لم تكن في أمة من الأمم خمس منـها في الرأس وخمس في الجسد فأما التي في الرأس فالفرق والسـواك والمضمضة والإستنشاء وقص الشارب دون اللحية وأما التي في الجسد فتقلم الأظافر ونتف الإبط وحلق العانة والختان والاستنجاء.....

ومنها تركهم الأظافر ليتخامشوا بها وهي عادة شنيعة تشوه الوجه المحتـرم الذي ورد النهي عن ضربه لأن الله تعالى خلق آدم على صورته ولكن عامـة الأمم تضرب للوجه ولم يتق أحد الوجه حتى الوالدان فإنهما يضربان أولادهم للوجه ويلطمانهم ويا حبذا لو وضعت قوانين لهذا الأمر.

ومن عادة بعض مرابطين الزواوة تذكير المرأة بلبس البرنوس حين السفر القصير سترة ونعيمة وهي عادة قبيحة مذمومة ورد النهي في ذلك ولعن الله المتشبهين والمتشبهات وأنه من مصادمة الطبيعة وسنن الكون كما قدمنا وأن كان قد يجوز التنكر وقد يضطر إليه في بعض الأحيان لأسباب ولكن إذا زال السبب زالت العلة وارتفعت والسبب ما يلزم من عدمه العدم ومن وجوده الوجود لذاته. والخلاصة أن العادات كثيرة غالبها كما تقدم من المستحسنة والمستهجنة وإنما يلزم أن تعرض كلها على ميزانية الشريعة فما صادقت عليها الشريعة يقرر وما لا فلا. وإن الله لهادي الذين أمنوا إلى صراط مستقيم.

الإصلاح المطلوب

اكتفى في هذا الباب بما حررته في كتابي "الإصلاح" حين كلامي على زوايا الجزائر عموما وعلى زوايا الزواوة خصوصا فأورده بتمامة وهو: الزوايا في بلادنا الجزائر عبارة جوامع ومقامات يجتمع فيها الناس للصلاة والبيات والقرأة وهذا مراد مؤسسيها وتوجد في قرى الشرفاء والمرابطين وأهل الصلاح المتدينين من العرب والبربر فلنعم المبدأ ولنعم الغاية وهي -الزوايا- كثيرة في بلاد الزواوة حتى قيل أنهم لقبوا الزواوة لكثرة زواياهم وهي منقبة تذكر فتشكر وعلي ذلك أثنى العلامة ابن خلدون حين كلامه على البربر كما تقدم وقصدنا الآن أن نقول أن تلك الزوايا لطول الأمد عليها وقدم عهد تأسيسها وعدم تعهدها بالإصلاح تكاد تكون عقيمة إذ لم يحسن شيء منها منذ تأسيسها الذي يرجع إلى القرون الأولى والحال أن الضرورة تقتضي بالتجدد والإصلاح

على حسب الزمان والمكـــان وكذلك لابد من التبصر والتدبـــر في مقاصـــد المؤسسيـــن رحمهم الله لا لنتخذهم أولياء وشفعاء وتطوف بقبابهم ونســـتلم أحجارهم وننتظر تصرفهـــم فينا ونسند إليهم ما يصيبنا بســـبب تقصـــيرنا ونقسم بهم وعليهم وحتى ما يصيبهم هم أنفسهم في مقاماتهم وقببهم ذلك إذا تهدمت وتخربت أو أصيب أولادهم فنقول أن الشيخ الولي رحمه الله هو الذي شاء ذلك ولو لم يشأ ما وقع وهذا كفر صراح وضلال واضح وهو مما يسخط ذلك الولـــي الصالح المؤسس ويتبـــرأ من أعمالنا إذا قال له الله يوم القيامة: ﴿ءأنت قلت للناس اتخذوني متصرفا وأن جميع ما يصيبكم وما يصـــيبني أنـــا نفسي ولو لم أشأ ما وقع فيقول سبحانك ما يكون لي أن أقول ما ليس لي بحق إن كنت قلته فقد علمته تعلم ما في نفسي ولا أعلم ما في نفسك إنك أنـــت علام الغيوب﴾ إني أسســـت زاوية ومسجدا للصلاة والاجتمـــاع والتعلـــيم وليتبصر العباد سبيل الرشاد. قلت إن مراد المؤسسين لا يخفى إنه اجتماعـــي ديني علمي فالاجتمـــاع للصلوات المفروضة وللنظر في شـــؤون جماعتهـــم من فصل القضايا والإصلاح بين الناس والتعاون في القرى عند اللزوم والدفاع والهجوم إلى غير ذلك من لتضامن الاجتماعي الطبيعي في كل زمان ومكـــان وقد اتخذ ذلك نصارى أوروبا فحرمناه نحن لأنه من فعال النصارى، والـــدين جاء للنظر في شؤونه من دراسة العلوم الشرعية، تفسير، حديث، فقه، علـــم الكلام، وما به يتوصل إليها من العلوم الغريبة آلات تلـــك العلـــوم وكـــون المؤسسين خصصوا القرآن فقط بناءا على أن المبادئ بالترتيب الطبيعي فالصبي قليل الفهم والإدراك كثير الحفظ فأسسوا له لمبادئ تعليمه قراءة القرآن أو أن

ذلك هو حد المقدور عليه ثم يتدرج إلى طلب العلوم الشرعية فالعقلية إلخ... إذ القرآن يستلزم العلوم كلها وبالأخص العلوم العربية لغة نحـوا وصرفـا ومعاني وبيانا وخطا وإنشاء وشعرا وقوافي وقد نظمها بعضهم.....

نحو صـرف عروض بعده لغـة ثم(......)* وقرض الشعر إنشاء
كذا المعاني بيـان الخط قافيـة تاريخ لذا العلم(......)* إحصاء

ولابأس أن نضرب لذلك مثلا فمن يقرأ القرآن الكريم ويحفظه كمن يملك عقارا (......)* وهو فقير لا يملك آلة ولا له هندسة يستخرج بهـا(......)* فإنه أعلم بذلك يلزمه السعي في طلب الآلات والمهندسين والعمال وإلاّ فهـو خاسر والمعنى واضح وربما كان هذا مراد مؤسسي الزوايا رحمهـم الله وهـو من باب الدخول في الأمور بالرفق والتدرج لمحمودين لا لنحمد على حفـظ القرآن لنتغنى به وليقال فلان حافظ القرآن ولنعم الأمر ولكن ما فائدته ومـا أغنى عنا؟ كما في مصر والشام لهذا العهد فإن بعض الأعيان وذوي البيوتات العظيمة يرتبون قراءة في أيام معلومـات في بيوتهم غالبا أو في القبور فيحظر القارئ ويشـرع في قراءة القرآن ولكن سر القراءة مجهول لم يعرف أو عرف ولم يعمل به فلذلك ترى القارئ مدخلا إلى بيت أو زاوية من زوايا الـدار لا في بيت الاستقبال بـل في دهليز أو بيت وضيع حقير أو زاوية نسج فوقهـا

---

* كلمة غير واضحة في النسخة
* كلمة غير واضحة في النسخة
* كلمة غير واضحة في النسخة
* كلمة غير واضحة في النسخة

العنكبوت قاعدا وحده فيقرأ ويغني ثم يخرج وقصد القارئ واضح هو أخذ أجرته وأما قصد صاحب الدار وربتها فهو إما للبركة ولكن لا بركة مع الإهانة لكتاب الله العزيز إذ لو كان داخلا على رب الدار وربتها طبال وغناء أو فونوغراف أو البيانو لرحبوا به ولجعلوه في (......)* وفي أعلى مكان منضد ولو كان رب الدار وربتها يعملان على علم وعلى سنة وعلى شريعة لعملا ذلك اقتداء (......)* من قوله تعالى مخاطبا نساء النبي صلى الله عليه وسلم وربات بيته ﴿...هو ذكر ما يتلى في بيوتكن من آيات الله والحكمة﴾ ويا حبذا لو تقرأ مثل هذه السورة في البيوت على النساء ولكن أين الرجال من فهمها فكيف بالنساء، وإما ليقال أنهم رتبوا قراءة في بيوتهم ليحفظهم الله من الشيطان الرجيم والشيطان عامل فيهم بواسطة الجهل ما يروى غلته في بني آدم عدوه الأصلي القديم في عالم الغيب. نجد في عدة من الزوايا بالزواوة عشرات بل مئات من قراء القرآن ولهم نفقة جارية من مؤسسي الزوايا ومن العادات المستحسنة من تخصيص الزراع جزءا معلوما للزاوية جازاهم الله خير الجزاء ولكن للجهل ولسوء الإدارة لم تحصل الأمة على نتيجة مطلوبة إذ لم يتخرج لنا من تلك الزوايا في هذا العهد الأخير واحد في المائة (100/1) بل ولا في الألف إذا سألناه عن القرآن ما هو؟ ومن أين هو؟ ومن جاء به؟ ولأي شيء جاء به؟ وما فائدته؟ وما حكمه؟ وما المراد بحفظه؟ وما الحكم في حفظه؟ وإلى متى يتمادى في حفظه؟

---

* كلمة غير واضحة في النسخة

* كلمة غير واضحة في النسخة

وإذا لم يحفظه فما عليـه؟ وما يلزم طلب علوم وفنون آخر؟ وهل بلغـه أن قواعد الإسلام الخمس تطالبه بإحكامها عند بلوغه طلبا جازمـا و إلا فهـو مسؤول مثلما تطالبه الحكومة بالعسكرية لخدمة وطنه والدفاع عنه ولا يبقـى مهملا وكذلك الشريعة الإسلامية تطالبه وأنه مكلف أيضـا للعمـل طبـق الأحكام الخمسة: - الفرض- الندب -الكراهة -الحرام -الإباحة.

ثم إن المفهوم والملكات والمواهب الإلهية تختلف باختلاف أصـناف النـاس فمنهم حافظ فيتمادى في الحفظ ومنهم فاهم فيتمادى في الفهم ومنهم كاتب فيتمـادى في الكتابة ومنهم حاسب فيتعاطى الحساب ومنهم نحوي ومنـهم فقيه ومنـه محدث ومنهم.. ومنهم. فيجب إذن أن يصـرف كل ذي ملكة إلى ملكته وكل ذي فن إلى فنه ولو لم نبتل بسـوء الإدارة والغفلة البالغة حتى البلاهة. نعم إن المؤسـس لم يسعه الحال لهذا التصرف إذ ليس من اللازم أن يكون الشيء كاملا في ابتدائه وهذا ليس من طبيعة البشر والارتقاء وسـنن الكون إنما هو أمر الله تعالى الذي يقول لشيء كن فيكون وأما أمور العبـاد وسائر المخلوقات فعلى سنة التدريـج وكذا لفهم عمل المؤسسين في الزوايـا ثم ما يمنعنا نحن بعدهم أن نرفع القواعد والبنيان الذي ابتدأوه وما يمنعنـا أن نؤسس نقابة ومديرية ومفتشية ويجعلوا التعليم أقساما ويعينوا فنونـا تـدرس حسب أسنان الطلبة والأهلية التي فيهم والاستعداد الفطري في كـل واحـد منهـم ويحدّدوا مدة للخـروج من المدرسة -الزاوية- أم هم مستغنـون عن وجدود العلماء وتخريجهم من زوايا بلاهم ولا حاجة لهم إلى فقهاء ومحدثين ونحاة ومتكلمين وبيانيين ومنطقيين وكتاب ومنشئين وحملة أقلام وجغـرافيين

ومؤرخين وسواس واقتصاديين وإداريين وفنيين ومهندسين وصناع وتجار ومزارعين وكيماويين إلى غير ذلك مما هو من لوازم المدارس والزوايا وإلاّ فما معناها؟

الإصلاح والأخذ بالجديد ضروري وطبيعي في حياة الإنسان تتجدد لوازمه تجدد الأيام، وتحدث له أسباب بحدوث العوام، مثل إن يغسل الإنسان وجهه كل يوم ويقلم ظفره كل جمعة وكذلك يحلق شعره وينصف عمله ويصلح شأنه ويذبح شاة الأضحية كل عام وهلم جرا. وإن الزوايا مدارس ومساجد كما قدمنا تخرج منها رجال قراءة وعلماء وأئمة مرشدين ومصلحون كما أشرنا غير ما مرة وعلى الخصوص العظماء من العلماء كما سبق فإن لنا بهم فخرا وهداية ونقول أنهم أوائلنا وأبائنا تركوا لنا ذكرا جميلا، ومقاما جليلا، ومن يأتي في المستقبل (......)* فلا يجمل بنا أن يسجل علينا التاريخ بأنا حد مانع وحجز حاجز بين الأوائل والأواخر وأننا أضعنا ميراث من قبلنا وأهملناه وأنه لمن السفه في التصرف ولمن القصور والسقوط وخلاف المرجو والمنتظر فلا يجدر بنا أن نكون أفراد من يتمثلون بقول المعري:

وإني وإن كنت الأخير في زمانه ... لآت بما لم تستطعه الأوائل

والحل أن ذلك جائز شرعا وعقلا ولا يكون هذا إلا بالإصلاح اللازم والسير مع السائرين حذو النعل النعل كمن في القافلة و إلا فنحن منقطعون مضمحلون ونجد الخاص والعام منا لاهجا بهذا التخلف والاضمحلال منذرا بالفناء فعلام ذا القنوط المنهي عنه؟ نحن مكلفون، مسؤولون، إما مأجورون

* كلمة غير واضحة في النسخة

وإما مأزورون ولا ينفعنا أن نكذب على أنفسنا وأو على الله أنا عاجزون بل إنا مقصرون ما دام لنا العقل والتصرف في شؤوننا الخاصة المعروفة بالحرية الشخصية فلم لا نتناول إذا مصالح إصلاحية عصرية وأن نجعل يدا في القديم الصالح ويدا في الجديد كذلك؟ والإسلام العزيز نفسه جاء بهذا المعنى فقد ثبت أنه أقر فقط على أشياء قديمة مستحسنة كالحج والطواف مثلا فقد أصلحهما فقط وكسر الأصنام ونهى عن أشياء يفعلونها نذرا كالطواف عراة حتى النساء لما في ذلك من المنكر وفساد الأخلاق ومعرة ومن الشواهد على ذلك قول ضباعة من بني سلمة:

اليوم يبدوا بعضه أو كله وما بدا منه فلا أحله

أجثم مثل القصب باد ظله كان حمى خيبر لا تمله

فأصلح الإسلام خطايا من هذه وأثبت الحج الصحيح وإنما كلف العرب ذلك الضلال الولاة المتصرفون في بيت الله الزاوية العامة والقدوة التامة للمسلمين أفلا نستنبط من هذه وذكر صاحب الروض الآنف أن هذه المرأة مشهورة بالمعاني وذات القدر والجمال وخطبها النبي صلى الله عليه وسلم ولما بلغه ما قالت تركها وماتت أسى وحزنا على ذلك ومثل هذه من الخلاق والعادات التي أصلحها الإسلام كثيرة والإسلام العزيز جاء بالإصلاح العام في الدنيا كلها، وفي الأمم جميعها، وكان صلى الله عليه وسلم يستحسن كل نافع وينكر كل ضار ويتخذ كل حكمة وهو ينبوع الحكم ولا يأنف مما لم يعرف أو من جديد أشير به عليه من أمور الدنيا وقد أشار عليه سلمان الفارسي رضي الله عنه يوم الخندق بحفر الخندق فقال له يا رسول الله إنا إذا

حوصرنا خندقنا فاستحسن ذلك صلى الله عليه وسلم فحفر بيده الكريمة وكسر الحجر بالمعول ولم يقل هذا عمل فارس عبدة النار وكذلك أشير عليه صلى الله عليه وسلم ليتخذ خاتما ولم يقل هذا عمل العجم كما ابتلينا نحن في هذا العصر في خصوص هذا القطر السيئ الحظ كلما أخذ أحد بعمل ما إصلاحي ضروري وكان ذلك العمل تعاطاه اليهود والنصارى نقموا منه وتعوذوا بالله من الشيطان الرجيم والحال أنا نرى الأعمال الجليلة الصالحة النافعة كلها اتخذها جيراننا اليهود والنصارى فعلى هذا لا يبقى لنا إلا أن نشد الوثاق على أيدينا ونتهم عقولنا ونعقل أرجلنا فتوكل على الله إن الله يحب المتوكلين ويا للغفلة والغرور عجبا ثم عجبا بمن يبلغ به الجهل والغرور والعمى أو التعصب الممقوت إلى هذا الحد وينكر فنونا ومعارف وعلوما ونظامات في المدارس وسائر الأعمال في جميع الإدارات وتراتيب في الأمور الاجتماعية يراها الأعمى ويسمع بها الأصم ويحس بها الجماد فلا أقسم برب المشارق والمغارب أنه لو كان صلى الله عليه وسلم حيا لأشار علينا بكثير من تلك الأشغال والمصالح النافعة في جميع الشؤون الاجتماعية لما تمخضت بها أوروبا ومخض رجالها فأخرجوها من العدم إلى الوجود وخصوصا نظام المدارس والأسلحة والأدوات والآلات والتجارة والصناعة والزراعة وقد ثبت أنه صلى الله عليه وسلم يستعرض الشبان ويجيز ويترك فاستعرض ذات يوم شابين فأجاز أحدهما وترك الآخر فقال الصبي بل الشاب الذي تركه لم لم تقبلني يا رسول الله؟ أتأذن لي أن أصارع صاحبي الذي أجزته؟ فأذن له صلى الله عليه وسلم فصارعه فصرعه فأجازه وثبت أنه ألزم الأسارى تعليم أبناء

المسلمين القراءة والكتابة إذ لا يعقل أن يروج شيء في عصر فيستحسن ويؤخذ به كالسلاح مثلا والمراكب البرية والبحرية والميكانيك في الفابريكات والمعامل فيتعاطى ذلك أقوام ويحرمه أقوام فإن ذلك يؤدي لتخلفهم وفنائهم لو لم نتخذ كل من فرنسا وانجلترا بجميع ما أخذت به ألمانيا من ضروب فنون السلاح والنظام والطيران وسائر المخترعات كاتخاذهم مثلا المضادة للغازات السامة وللتوربيل وللمدافع الرشاشة التي قابلوها بالتانكس التي لا تعمل فيه المدافع وهي دابة دبابة تخوض غمار المعامع ولا يصدها شيء واشتكى منها الجند الألماني الذي كاد أن يقف دون مرامه وقل كذا الطيران وفي الأيام الأخيرة من الحرب أسقط الجندان الفرنساوي والإنجليزي ثمانين طيارة من طيارات الألمان في ميادين القتال بفرنسا فقلت لصاحبي الشيخ خالد النقشبندي الدمشقي ونحن بمصر نقهر جيش ألمانيا عن قريب لأنها تعجز عن خلف هذا العدد الذي يدل على تفوق فرنسا وانجلترا وأمريكا فما لبثنا غير أيام حتى طلبت ألمانيا الهدنة المنعقدة في (سبا) فكثر إعجابي باسم (سبا) المشابه تماما لسبأ اليمانية التي جاءت فيها الآية بخبر عجيب أيضا في قضية ملكة اليمن بلقيس فقال تعالى حكاية عن الهدهد ﴿وجئتك من سبأ بنبأ يقين﴾ فقلت لشيخ خالد لعمرك أن هذا الخبر يقين على انتهاء الحرب لأنا ننتظر ذلك جميعا لنجتمع بأهلينا المعتقلين في بر الترك وهذا معنى قولهم التاريخ يعيد نفسه وقولهم ما أشبه الليلة بالبارحة فاعتبروا يا أولي الأبصار وبالجملة من لا يأخذ بالإصلاح والجديد فهو مسؤول لدى الله ورسوله عن نفسه وجنسه ووطنه ودينه خائن في ذلك كله، وباء بإثمه هذا وأرى إيراد فصل

كتبه في الإصلاح محبنا العلامة الشيخ عبد القادر المغربي الطرابلسي الذي كان يحرر بجريدة المؤيد الشهيرة وهو ممن إذا عبر حبر، وإذا أنشأ وشى وهو هـذا نصه:

الإصلاح الإسلامي

الباعث عليه -المطلب به- فهرست أركانه- قلنا في مقال سابق أن هـذا الإصلاح الذي سماه المرحوم جمال الدين حركة دينية لا يمس جـوهر الـدين ونصوصه السماوية وإنما يتناول تمييز التقاليد التي اقتبسناها عن الأمم الأخرى بواسطة الاختلاط بهم بواسطة أفراد من علمائهم دخلوا ديننا وحملـوا إلينـا مزاعم من دينهم، ثم تمييز الآراء الاجتهادية أصبحت على طول الزمان كأنهـا أقوال الشارع نفسه بحيث أصبحت لا تجوز مصادرتها ولا التردد في قبولهـا، نميـز كل هذا عن نصوص الدين الأصلية ونحدد مقاصده الساميـة ونقـف على أسراره العلمية ونسعى في إيجاد طرائق تعليمية تقرب الـدين للأفهـام ونسهل تحصيله ونشره بين الأنام، إهمال المسلمين للإصـلاح أن غدروا فيـه فيما مضى من الزمن فإنهـم لا يغدرون فيه اليوم وقد أصبحت المادة المعنوية بيد الشعـوب الأوروبية وصار لهم بهاتين القوتين حق الإشراف والوصايـة على الحالة الاجتماعية العامة في العلم الإنساني ومهما حكموا بأن الشـريعة وكذلك التعليم يتنافى والمدنية أو لا ينطبق على مصالح البشر كـان قـولهم المسموع ورأيهم المتبوع فإذا لم نثبت بأن ديننا يواخي المدنية ويلائم المصـالح

البشرية كنا مسيئين إليه وإلى أنفسنا فتتلاشى قوميتنا[1] وينهار بنـــا عزنـــا، إن عقلاء الإفرنج لكثرة ما خالطونا عن طريق قراءة أخبارنا واســتعمار بلادنـــا والسياحة والتجارة بيننا—أصبحوا يعدون لنا من المـــذام والمســـاوئ الدينيـــة والأدبية والاجتماعية م لا يخطر لنا ببال وقد يتفق أحيانا أن يعجـــب بعـــض أولائك العقلاء بما تضمنته قرءاننا من الحكـــم الرائعـــة والآداب الناصـــعة والقواعد الجامعة فيجهر في محافل قومه بأن الإسلام من خير أديان البرية دينـــا وأنه ملائم لمصالح البشر وليس في أصوله ما ينافي المدنية الصحيحة ثم يستنتج من ذلك كله أن المسلمين خير الأمم دينا وأدبا وفضيلة ونظاما اجتماعيا حتى إذا ساقته المقادير أو أحـــب الاستطلاع إلى بلادنـــا وأشرف مـــن كتـــب على نوع حكوماتنا ومحاكمنا وأطوار خاصتنا وعامتنـــا وأحـــوال عائلاتنـــا[2] ومجتمعنا وسائر ضروب أشغالنا ومعاملاتنا. رجع القهقـــري عن رأيه ونـــدم على ما كان من التسرع في حكمه وعاد إلى قومه يئسا وعن مدحه الإســـلام والمسلمين ساكتا وقد قال المرحوم جمال الدين مرة: إن عقلاء الإفرنج يتدبرون آداب القرآن وتعاليمـــه العالية ويحكمون بأنه خير قانون للإصلاح في شؤون البشـــر ويهمون أن يسلمـــوا ثم ينظرون من خلال القرآن وتعاليمه العاليـــة إلى الأمم الإسلامية السائمة في أسيا وإفريقيـــة يرونها من أحط الأمـــم شـــأنا وأشدها ابتعادا عن روح الدين والمدنية وممارسة الفضيلة فينفرون من الإسلام وينظرون إلى القرآن كالمرتابين فيه وقي صلاحيته لأن يكون سلما ترتقي عليه الأمم إلى معارج المدنية والعمران وبعد أن رأوا ما رأوا من حاله أتباعه وهكذا

[1] لو قال جنسيتنا لأصاب لفظة قومية تركية.
[2] وكذلك لو عبر بالأسرة عن العائلة لأن لفظة عائلة غير صحيحة في المعنى

يدعوهم القرآن إلى الإسلام وينهاهم المسلمون عنه ثم قال جمال الدين فالواجب علينا قبل كل شيء أن نثبت للأوروبيين أننا غير مسلمين وبهذه الصورة يمكن أن نجلبهم إلى الإسلام ونحسن اعتقادهم فيه ولو اقتصر الأمر على هذا لهان ولكن قد نبت من المسلمين وفي بلاد المسلمين طائفة عظيمة من الشبان تعلموا العلوم العصرية وتثقفوا بآداب الإفرنج ودرسوا قوانين الاجتماع الحديث وعرفوا بسبب ذلك من أطوار البشر وطبائع العمران ما لم يعرفه سواهم وقد أخذوا يقارنون بين ما يعرفون وبين ما ورثوه عن أسلافهم فنكروا أشياء كثيرة مما يعده المسلمون دينا ولما لم يجدوا أحدا يزيل شكوكهم ويزيح عنهم ما خاطرهم من الريب فيما إذا كان الدين الإسلامي يصلح للبشر أو لا يصلح؟ وجود هذه الطائفة المتنورة في بلاد المسلمين من أقوى البواعث على الإصلاح الديني ووجوب السعي إليه من بابه وأن لم نفعل اختل نظامنا ودخل الفشل والعدو بين صفوفنا يحاول قوم من الجامدين أن يأخذوا أولئك المتنورين بالتقليد الأعمى وأن يحملوهم على الإذعان والتصديق بمجرد نقل النصوص وسرد أقوال المتفقهين ولكن محاولة هذا منهم مقاومة للطبيعة وهو أمر مستحيل، عقل حر في نفسه، حر في حكومته، حر في عصره حر في الوسط الذي يعيش فيه تكلفه أن يقلد غيره تقليدا أعمى اللهم إن هذا تكليف ما يطاق، تكليف لم يرضه الله تعالى للمشركين في أزمنة انغماسهم في الجهالات وظهور الخوارق والمعجزات أتراه يرضاه للمتنورين في أزمنة الاكتشافات والاختراعات وأتينا العلم على المشاهدات والمجربات –للتباطئ في الإصلاح وإبقاء ما كان على ما كان حمل أناسا من هذه الطائفة المتنورة

على نبذ الدين باطنا واكتفوا من إسلاميتهم بالرسوم الظاهرة فتراهم يشهدون احتفالات الأعياد والمواسم ويمشي بعضهم في الجنائز وإلى مقابر المسلمين وإذا دعي إلى عقد نكاح استمع خطبة الشيخ بأدب واحتشام وغير ذلك مما من شأنه أن يساعد على الامتزاج بأهله ومواطنيه ويجعل عيشه معهم طيبا هادئا ومنهم جماعة يعتقدون الإسلام لكنه لا يعرفه جمهور المسلمين ولا يعترفون بصحته وأساس اعتقاد هؤلاء الإذعان لكلام الله وحده وإذا احتج أحد بكلام غيره عرضوه على عقولهم ومصالح البشر ونواميس الاجتماع فإذا وافقها قبلوه و إلا رفضوه فالعملة عندهم البرهان لا قال فلان وروى فلان ومن عجيب أطوار أفراد هذه الطبقة أن ترى الواحد منهم لا يصلي ولا يصوم والصلاة والصوم من أركان الإسلام الخمسة كما لا يخفى لكنك تراه كبير النفس قوي العزيمة ثابت الجأش كثير الأدب لا يكذب ولا يغش ولا يداهن ولا يتملق ولا يخضع ولا يشكو ولا يطمع وهو شديد الغيرة على الإسلام مجتهد في خدمته عامل على رفع شأنه بكل قوته إذا سمع طعنا فيه أو افتراء عليه قامت قيامته فيكتب ويخطب في الرد على الطاعنين وتسفيه أرائهم ويأخذ في تعداد مناقب الإسلام ومزاياه الجمة التي يفضل بها سائر الأديان ثم أنا نقارن بين هذا المسلم ومسلم آخر من الطبقة الجامدة فنراه يصلي ويصوم ويقف على الضريح خاشعا ضارعا ويتأدب مع القرآن فيدعي أن عقله عاجز عن فهم أسراره والنطق بعجائبه فهو من أجل ذلك يتكل على ما حققه "الشرنبلالية" "الولواجية" و"الانغروبة" و"العالمكيرية"، وليس هذا وحده بل ترى خلافه أمشاجا من الكذب والصدق والنفاق

والإخلاص والتواضع والكبر والغش والخـــداع إلى غير ذلك مما هم في جانب والإسلام في جانب ثم ترى هذا المسلم يعيب المسلم الأول ويحتقره ويفسقه إن لم يكفره فكيف نحكـــم إذا فاضلنا بينهما ولا يلزم إلا الإصلاح لأن كليهـــما في خطأ من جهـــة وعلى صواب من جهة فلا نغفل هذا الخـــرق ولا نتهاون في ترقيعه أظن انه قد اقتنعنا معشر المسلمين بوجوب الإصلاح فلا نجمد إلى حد أن نعطل أحكام العقل ولا نتساهل إلى درجة نتهاون معها بحدود الشرع بـــل نعتقد ونعمل بكل ما شرعة الله لنا بطريقة النقل الصحيح ثم نتســـاءل عمـــن يتصدى لهذا الإصلاح وممن ننتظر القيام بأعبائه؟ كنا أوجزنا في مقالنا السابق وأشرنا إلى أن الإصلاح الديني هو وظيفة من وظائف علماء المسلمين وأنهم إن لم يقوموا به لم يقم غيرهم به وإن هم شغلوا عنه كان سواهم عنه أشغل. وقـــد يقولون إن كان لابد من هذا الإصلاح فينبغي أن بيكون المطالبون بـــه هـــم الحكام والرؤساء والعظماء والأغنياء. أما علماء الدين فمعظمهم قد شـــغلهم أمر دنياهم عن النظر في أمره وإن فرغوا فليس معهم مال ليساعدهم ولا لهم عصبـــة تعضدهم بمثل هذا الكـــلام يحاول العلماء زحزحة عـــبء العمـــل عن عواتقهم وإلقائه على عاتق غيرهم ومن الغريب أن يوجد قوم من الشبان المتحمسين يذهبون إلى أن الإصلاح الإسلامي لا يتأتى للمصلحين ما لم يقوموا بتأليف جمعيات ثورية تسعى في قلب المجتمع الإسلامي رأسا علـــى عقـــب ثم يعودون فينشؤونـــه خلقا جديدا ومن لطف الله إن كان هذا الرأي قاصـــرا ومقصورا على ذوي الأمزجة العصبية الشاذة وهم قليلون في شبابنا المتنورين وهـــذا ما جعلني أرتاب في السيد جمال الدين منذ قال لي لابد في الوصـــول

إلى الإصلاح من حركة دينية فحسبته من أولئك النفر القائلين بلزوم تـأليف الجمعيات الثورية حتى فسر لي الحركة الدينية بالإصلاح الإسلامي الذي أبنـا فيه وشرحنا قوادمه وخوافيه. إصلاحنا المنشود ليس بدعا من كـل إصـلاح ديني أو اجتماعي قامت به جماعات البشر وحصل في أزمنة التـاريخ القـديم والحديث فهذ الإصلاحات إنما يقوم بها أولئك الذين لم تلههم مناصب الجـاه ولا مظاهر العظمة عن النظر فيما حل بقومهم من البؤس والشقاء والبحـث عن أسبابه ووسائـل النجـاة منه أمثـال هؤلاء وهم المرجـوون للبحـث في الإصلاح لا أولئك الرؤساء والعظماء الذين يشعرون بالحاجة إليـه وقـد يأنفون من الاشتغال به بل ربما قاوموه أشد مقاومة لأنه قلما يخلو من تحطـيم امتيازا لهم وزحزحتهم عن مستوى عظمتهم وهكذا كان شأن الرؤساء في كل انقلاب ديني وقد عاتب القرآن النبي صلى الله عليه وسلم في جملة آيـات على عنايته بأمر كبراء العرب وانتظاره انتشار الإسلام بواسطة إيمانهم وكـان صلى الله عليه وسلم حريصا على دعوتهم وإقامة البرهان لهم وكان اشتغاله بهم يدعوه أحيانا للإعراض عن المستضعفين والتولي بوجهه الشريف عنهم ظنا منه أن هؤلاء تبع لأولئك الرؤساء وأن الرؤساء متى أمنوا آمن معهم المستضعفون

(تنقـص ص 82 من النسخة التي بين أيدينـا وتبدأ الصفحـة 83 كالآتي):

فرديا وإنما يكون جماعيا فيجتمع المجتهدون ويقررون الحكم بالأكثرية.

الخامس- أن ننظر إلى جميع المذاهب على السواء فلا نفرق بين الأئمة ولا نلتزم لقول إمام بعينه وإنما يأخذ أهل كل عصر من مذهب كل إمام ما يناسب مصلحتهم.

السادس– أن يكون مدار الأحكام الشرعية والمعاملات القضائية المصلحة فهي المحكمة في كل محكمة والمسؤولة في كل مسألة.

السابع– أن لا نحدث في الدين حدثا ولا نبتدع شيئا كبيرا بداعي أن له في السنة أصلا صغيرا وإنما نقف عند حد ماورد عن الشارع وثبت في السنة بقدره.

الثامن– أن نميز العقائد الدينية عن التقاليد التي مرجعها النقل الأحادي أو الرأي الاجتهادي أو مجرد الشيوع بين الأشياخ فلا نكلف أنفسنا عقائد لم يكلفنا إياها الشرع ولا نكفر مؤمنا إلا إذا أنكر عقيدة ثابتة لا تقليدا مرويا

التاسع– أن لا نعتمد في تصحيح الحديث على صحة روايته ومسنده وحدها بل ننظر في متن الحديث ومدلوله ومضمونه فإن وافق أصول الدين وآي القرآن قبل وإلاّ رد مهما كان أمر سنده وروايته.

العاشر– أن لا يجري قياس واستنباط في العقائد والعبادات والشعائر بل نعتمد فيهما ظاهر النص وإنما القياس في المعاملات الفقهية وكل ما يتعلق بالقضاء ويختلف باختلاف الزمان والمكان ويسمى اليوم الحقوق المدنية.

الحادي عشر– أن نرفع من شأن العمل قليلا فلا نزعم أن المسلم ينجوا بمجرد أقوال رددها وتقليد يبطنها وحركات يأتي بها المسلم بل المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده. بفعل وعمل الأعمال التي حث عليها الإسلام وتخلق بالأخلاق التي أمر بها وإلاّ كان الدين دعاوي فارغة وألفاظا مهملة أو يقال كان الدين عبثا أو الوحي سدى.

الثاني عشر– أن نرفع أيضا من شأن الأسباب قليلا ونعتبرها مظاهر لإدارة الله تعالى وقدرته فلا نهملها إلى حد أن نقول أن السم لا دخل له

في الموت للذي تناوله فمات به وإن هذا التناول لو لم يتناوله لمات حتمـــا وإلاّ تعطلت الحدود وشك في حكمة المعبود.

الثالث عشر– أن يترك الفقهاء كثيرا من النظريات والمسائل إلى أربـــاب الاختصاص في علومها فلا يكون الفقيه طبيبا أو مهندسا أو كيمياويا وقائـــد حرب إلخ... وإنما يبحث فيما يعلم ويدع ما لا يعلم هذا ما خطر لي جمعـــــه من كليات الإصلاح وقواعده الأساسية وقد أتذكر في وقت آخر أو يتذكر غيري ما ذكرت فالحق به إن شاء الله أهـــ من جريدة المؤيد بتاريخ **24** ذي القعـــدة الحرام سنة **1327** م.

اللائحة نظام التعليم وبيان طرقه

من القضايا المسلمـــة أن التعليم من جملة الصنائع والمعارف، وان الصنائـــع والمعارف تختلف، في الإجادة والإتقان، حسبما نرى بأعيننا، وندرك بعقولنـــا، وليس خطي هذا كخـــط غيري، ولا إنشائي هذا كإنشاء غـــيري، إذ قـــد يوجـــد من هو أكثر مني وأفضل، ويوجد من هو أدنى وأقل، ذلك أن المواهب المدنيـــة مختلفة، والمدارك الإنسانية متباينـــة، وإن للتربية والتعليم لتأثـــيرا على حسب المنشأ والمحيط، ومن المحال أن يخرج عن ذلك أحد غير الأنبيـــاء المختارين والمعصوميـــن ومعنى المنشأ والمحيط الجماعة والجمهور والقبيل الذي يقوم فيـــه الإنسان وهو معنى الحضارة والعمران والحضـــــارة والعمـــــران على حسب الأمم والأمم على حسب سادها وقادها فيرجع الأمر إلى تـــأثير التربية والتعليم ويؤيد هذا كله الحديث "كل مولود يولد على فطرة الإسلام

فأبواه يهودانه و ينصرانه" ثم أن لكثرة الأمة وقوتها تأثيرا في الأحوال وهو معنى الحديث أيضا " تناكحوا تناسلوا فإني مكاثر بكم الأمم يوم القيامة" ومعنى هذا التمهيد لنثبت مصلحة الإجادة والإتقان الذين بارك فيهما النبي صلى الله عليه وسلم بدعائه: "بارك الله فيمن عمل شيئا وأتقنه" وإذا أثبت لزوم الصنعة والإجادة والإتقان وقيل ذلك لزوم الابتداء ولزوم الابتداء هو لزوم التعليم وهذه الأشياء كلها تستلزم الإصلاح أي قابلة للزيادة والنقصان على حسب مهارة المعلمين وفوق كل ذي علم عليم.

إشكال أوردته على جملة من الطلبة والمعلمين والمتعلمين منذ ثمانية عشر عاما وهو ما لنا نرى التلاميذ الذين يتعلمون في المدارس الإفرنجية يتخرجون في مدة اثنتي عشرة سنة يحسنون فنون منها الخط والكتابة والإنشاء والحساب والجغرافيا وتاريخ أوروبا ومعرفة رجالهم العظماء ويتقنون لسانا غير لسانهم ولغة غير لغتهم ونحوا غير نحوهم وصرفا غير صرفهم وفقها غير فقههم وأدبا غير أدبهم وغير ذلك من العلوم النافعة ونرى الذين يتعلمون في مدارسنا -زوايانا- يمضون أكثر من اثنتي عشرة سنة ولا يحسنون فنا واحدا من الفنون المذكورة في لسانهم ويا ترى ما السبب في ذلك؟ وما هذا العكس والنحس في التعليم الإسلامي؟ فوجم الإخوان وربما حسبني بعضهم شديد الجسارة غير هياب قليل الأدب لأقابل بين التعليمين وأقارن بينهما وأصرح بهذا كله بصورة استفهام إنكاري فأجبت: إن ذلك واضح له سبب وإذا تبين السبب زال العجب فالسبب الوحيد في ذلك حسن التعليم والإجادة في صناعته والأخذ بطرقه المفيدة النافعة وللتعاليم أبواب ثلاثة وهي بيوت الله يقول "واتوا البيوت

من أبوابها" ذكر لي إنسان أنه حضر ثمانية عشر مرة دراسة المقدمة الأجرومية الشهيرة وما فهم منها شيئا ثم حضرها عن طالب علم آخر مرة واحدة وما غاب عنه شيء من محتوياتها فاستفاد في نصف شهر ما لم يستفده في أعوام وهذا من حسن الصناعة والإجادة لا البركة فقط فإن الإفرنج كثيروا التحول والانتقال من صالح في الأشغال إلى أصلح ولا يضيعون فرصة بدت، ولا مصلحة ظهرت، وبذلك نراهم يدركون عدة فنون ومعارف في مدة اثنتي عشرة سنة مثل أن يدرك العربي المسلم -لو أصلحنا مدارسنا وزوايانا- حفظ القرآن وتفسير الحديث والأصلين النحو والصرف والمعاني والبيان والمنطق والفقه والفرائض والحساب والجبر والمقابلة والهندسة وعلم الكلام والتاريخ والجغرافيا والكتابة والإنشاء والهيئة والفلك ومسك الدفاتر والاقتصاد السياسي والاقتصاد الإداري والطب والحكمة في المدة المذكورة اثنتي عشرة سنة وقد كان المتقدمون في الصدر الأول كما ذكرنا ثم اقتضى سوء الحال جحود أبائنا وتقهقرهم فما يمنع أن نرجع نحن ونتدارك ما كان لأوائلنا بالإصلاح.

طرق التعليم

التعليم الابتدائي

أرى وأنا زاولت التعليم مدة وتعاطيته بإخلاص ولي على ذلك شهادة مرضية وكان الأستاذ المرحوم خلقة الحفاظ ببلادنا الزواوة الشيخ محمد سعيد يقول مشافهة وفي ظهر الغيب من تعلم عندك سنة خير ممن يتعلم عند غيرك عشرة أعوام وأود أن أجعلك مديرا عاما للتعليم العام في بلاد الجزائر كلها

-أرى أن يجعل الأولاد المتعلمون طبقات على حسب الأسنان ثم على حسب الاستعداد والإدراك أي قسما قسما ويكون تعلم الصغار من سبعة أعوام إلى اثنتي عشرة سنة مقتصرا على قراءة القرآن بإملاء وكتابة على قاعدتنا في الألواح من خشب أو قصدير أو (أوردواز) العناية بالحفظ وصناعته لأنه معراج وسلم إلى الأدب واللغة العربية فيتمادون إلى حد البلوغ مع قواعد عربية وسائل صرفية إلى دراسة الفقه والتوحيد والتفسير والتاريخ العام وسيرة النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه والجغرافيا والإنشاء والحساب والفرائض والمعاني والبيان والمنطق إلى أن يبلغوا ثمانية عشر عاما من أعمارهم فيزيدون سنة أو سنتين في الأصول والعلوم العالية ودراسة السياسة العامة الدولية فيمتحنون أثناء تلك المدة ويتخرج منهم أفراد يتولون الوظائف التعليمية وغيرها (........)* مثل الزكاة تؤخذ من أغنيائهم فترجع على فقرائهم وهذا معنى التضامن الاجتماعي في العلوم السياسية.

وأما الذين لم يحققوا ملكة في العلوم المذكورة فإنهم لا يحرمون أدب النفس وجزء من أدب الدرس مثل القراءة والكتابة فليستعين بذلك على صناعته وأرى أن يجعلوا قسما في التعليم للتجارة وأنها فن يدرس وأنه لمن أحسن الفنون لما فيه من تعليم حسن الخلق ومكارم الأخلاق وحسن المعاملة والرفق واللين المحمودين والاقتصاد والجغرافيا والحساب وغير ذلك مما هو من لوازم التجارة كمعرفة القوانين الوضعية وكلها مفيدة.

---

* كلمة غير واضحة في النسخة

الكتب التي يدرسونها

الكتب التي يدرسونها أكثرها موجود وإذا احتيج إلى كتاب يؤلف باقتراح أما القرآن الكريم والذكر الحكيم فتكون قراءته برواية ورش على أسلوب شرعي يلقى كما عند المتقدمين فيلقن التلميذ تلقينا بينا ويقرأ بلحن عربي بقدر الإمكان (.......)*.

وأما الخط- فيؤخذ من دفاتر مرسومة لذلك ومن معلمين خصوصيين ويحدد على قواعد يصطلح عليها.

وأما العربية - جمل من النحو والصرف فتؤخذ من الأجرومية والأزهرية والشذور والألفية (أمهات الأبواب منها إجمالا وتلخيصا وشرحا وافيا بينا مقنعا) وتطلع شراحها لا حواشيها ويطالعها المدرسون لا الطلبة ثم تلقى على الطلبة المسائل المحررة فيحفظونها ويكتبونها.

وأما الصرف- فلامية الأفعال جوف الفرا يطلع شراحها المدرسون ويلخصون مسائلها ويحررونها فيلقونها على الطلبة إملاء ودراسة ويكلفونهم حفظها ويطالبونهم بمسائل منها عند الامتحان الذي يعز فيه المرء أو يهان.

وأما الفقه- فيما أن المذهب مذهب مالك فيأخذون أولا في دراسة رسالة ابن أبي زيد سلّما إلى المختصر المشهور والموطأ بشراح معتبرة لا الحواش وتحرر المسائل في جميع الأبواب وتلقى على الطلبة كما تقدم وبداية المجتهد ونهاية المقتصد.

* كلمة غير واضحة في النسخة

وأما الأصول- فجمع الجوامع بالاختصار على نحو ما قدمنا يتعب المدرسون قبل الطلبة فيحررون المسائل ويلقونها على الطلبة فيكتبونها ويسألون عنها يوم الامتحان.

وأما الحديث- فيأخذ في مصطلحاته ثم كتبه المعتبرة كالموطأ فإنه أصبح كتاب بعد كتاب الله كذا قال جميع الأئمة فلله در مالك ونحن قد أهملنا دراسة هذا الكتاب.

وأما التوحيد- فيكتفي فيه بكتاب الإرشاد لإمام الحرمين ثم السنوسية المرضية ولكن باعتدال وعدم تشديد النكير ولعن المخالف والأولى السكوت عنه ومن يشتم الناس يشتم ولعل لذلك سمي التوحيد علم الكلام.

وأما التفسير- فيدرس على طريقة تفسير ابن عطية والطبري ملخصا ما قيل في تفسير الآية من أقواله هو لا مما جمع.

وأما التاريخ- فسيرة النبي صلى الله عليه وسلم لابن هشام والروض الأنف عليها وابن خلدون وابن الأثير وغيرهم من التواريخ العامة والخاصة واستيعاب الحوادث.

وأما الجغرافيا- فيدرس معجم البلدان لياقوت الحموي وكتب جديدة ألفت في الموضوع كثيرة ومفيدة والخرائط المرسومة لجميع البلدان والممالك والدول.

وأما الإنشاء- فمجموع مقالات الكتاب العظماء ومن القدما وأهل العصر فينتخب ذلك ويلقن الطلبة ويلقى عليهم ويطلب منهم النسج

على منوالها وفي صبح الأعشى ما يرد الأعمى بصيرا وكذلك مقدمة ابن خلدون ومقالات ابن الخطيب وابن زيدون الأندلسيين وعبد الحميد الكانت (هكذا في النسخة والمقصود الكاتب) ورسائل الخلفاء ونهج البلاغة وأساس البلاغة وفي العقد الفريد والأغاني ما يغني من عناء الأدب المدرسي وفي أحياء علوم الدين للغزالي ما يغني من عناء أدب النفس.

وأما الفرائض- والحساب فالرحبة والدرة البيضاء وما ألف في الحواضر كمصر والشام لهذا العهد ثم مختصر خليل بشرح دريدر وتدريب المبتدئ للشيخ عليش.

وأما المعاني والبيان- فيقتصر على متن التلخيص وشراحه والسمرقندية في الاستعارة.

وأما المنطق- فيكتفي باليساعوجي فالمسلم.

وأما السياسة- فمقدمة ابن خلدون يصدق عليها المثل السائر كل الصيد في جوف الفرا.

الإدارة والتفتيش للزوايا

الإدارة أول خطوة المسيرة في الإصلاح وأم المسألة وأصلها إذ معنى الإدارة السياسة الرشيدة وحسن التدبير وهذا الأمر ليس باليسير بل هو الأصل والإكسير لطرق التعليم كما ذكرتنا وكذلك التفتيش وهذان الأمران يؤخذان من العارفين الذين ينصحون وقد ترجم الخليفة المأمون عن اليونان علوما منها الإدارة وقد بلغ الإفرنج في هذا الزمان من حسن الإدارة ما به كفاية لمن يريد أن يكتفي وهذا آخر ما تيسر في وضع هذا الكتاب الذي يتقدم مثله في الموضوع وخدمت به الطائفة والأمة خدمة لم يخدمها أحد منذ قرون

وإخواني الطلبة وأولوا العلم يدركون ذلك في صريح الكلام لا في غضـــون، وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب وأنا استغفر الله من سهو حصل، أو خطأ أو خطل، ولا حول إلا بالله العلي العظيم.

ووافق الفراغ منه عشية يوم الأربعاء **19** ذي القعدة الحرام عام سبعـــــة وثلاثين وثلاثمائة وألف.

(وفي هذه الصفحة رقم **93** من النسخة المطبوعة التي بين أيدينا يعود شيخنا أبو يعلى الزواوي ويسجل هوامش أو يتدارك القضايا)

-الفقرة التابعة لنومرو (**1**) من الصفحة الخامســـة والعشـــرين-وتفســـير العلامة أبي حيان الأندلسي الجياني المسمى البحر المحيط ما لفظه وقـــال أبـــو الريحان البيروني المنجم صاحب الكتاب (الآثار الباقية عن القرون الخالية).. أبو بكر سمي ابن عمير بن أفريقش الحميري (يعني ذو القرنين) بلغ ملكه مشارق الأرض ومغاربها وهو الذي افتخر به أحد الشعراء من حمير حيث قال:

قد كـــان ذو القرنين قبلي مسلما ... ملكـــا علا في الأرض غير مبعـــد

بلغ المشارق والمغـــارب(......)* ... أسبـــاب ملك من كريم سيـــد

قال أبـــو الريحان ويشبه أن يكون هذا القول أقرب لأن الأذواء كانـــــوا من اليمن وهم الذين لا تخلـــوا أسماؤهم من ذي كذي المنار وذي نواس أهـــ والشعر الذي أنشده نســـب أيضا إلى تبع الحميري وهو قد كان ذو القـــرنين جدي مسلما" وعن على وابن العباس أن اسمه عبد الله بن الضحاك إلى أخـــره في التفسير البحر المحيط.

---

* كلمة غير واضحة في النسخة

تتمة أجواد ونجباء الزواوة الوارد ذكرهم
في الصحيفة 112

محمد على وأحمد، سعيد بن محمد علي عربي قشطريني (من بـــني عيســـى)، السيد أحمد بن السيد حسن (ناث يعقوب)، السيد أحمد يونس بن السيد محمد مزيان (من بني ايرثن)، السيد أحمد عبد المؤمن مقدم الطريقة الشاذلية من (بني عيسى)، السيد سليم الهادي المستنطق، السيد إبراهيم اليحياوي، السيد سليم الحنفي، السيد علي اليعقوبي، حسين بن محمد سعيد فرحـــات، السيد محمـــد أمســـون (من قرية أمسونن) المشهوريـــن بحمل السلاح والعمل بـــه عنـــد الاقتضاء، السيـــد عبد الغني (ناث عقيل)، السيد أحمد أبو حمو، السيد أحمـــد العربي، السيد الشيخ أحمد الزروق، سيد محمود الزروق (من بـــني ايـــراثن)، الحاج سعيد حموش، السيد محمد محمود (من بني يحي)، السيد الهاشمي وأخـــوه السيد الشريف (من بني اراثن)، الشيخ أحمد رمضان، الشيخ إبـــراهيم عبـــد المؤمن، السيد عمر الطيب، السيد عمر بن محمد دحمان، السيد محمد مزيـــان (من بني واجون)، السيد طاهر مراو، السيد أحمد بن محمد مراو الشيخ طاهر السكلاوي، السيد أحمد منصور، السيد عبد الرحمان منصور، الســـيد عمـــر منصور،؟ السيد حسين منصور (من بني ايراثن)، السيد جعفر والسيد إبراهيم ابنا الشيخ الطيب المبارك، أحمد الخضير، الحاج سعيد العربي، أحمد جمعة، سعيد جارم، صالح بن رزقي فراوسن، الحاج ابراهيم (من بني ساريج)، السيد أحمد خالد، السيد سعيد خالد، السيد محمد بن الشيخ موسى، السيد الطيب أبـــو مهدي وابناه السيد محفوظ و السيد حسن، السيد بلقاسم بن محمد الفوضيل

(من بين يتسورغ))، أحمد قاسم بن قاسي، السيد محمد بن عمر القواص، السيد محمود الينيوي، السيد مصطفى الينيوي، السيد رشيد الهادي، السيد سـعيد الهادي، السيد صالح الهادي خليفة وابنه السيد حسن الهادي، السيد محمد بن السيد أحمد المولود، السيد توفيق، السيد حسين ابنا السيد علي الشـرفاوي، السيد عبده بن السيد على طه لفقي وابنه السيد طه، السيد على القاضـي، السيد حسن اليعقوبي، السيد مصطفى بن السيد أحمد الطرابيشي، السيد رزقي بن عبد الله ساريج، السيد سعيد عذني، الشيخ عبده بن علي عمر، السيد عبد الله و السيد حسن ابنا الحاج عمر الشريف (من يافا)، السيد حسن بن الحاج أحمد (من الرملة)، السيد سليم، السيد عبده ابنا السيد عمر (......)* محمد مزيان وأكلي أبو جمعة، السيد عبده بن محمد صالح يرقدار بشير بن محمد علي عربي قشطرني، توفيق بن الشيخ العربي، محمد فرحات، محمد اعراب، الحـاج فرحات بن عمر، محمد سعيد بن علي، وأحمد رضا الشائع، السيد محمد بـن سعيد الشرفاوي، السيد محمد بن شريف تقزوين، عبد العزيز بن السيد محـي الدين اليعقوبي، السيـد اسماعيل اليعقـوبي، السيد كامل بن السيد الهاشـمي (من بني ايراثن)، السيد عبد الله، السيد مصطفى والسيد مسلم ابنا السيد عبد الرحمان منصور (من بين ايراثن)، السيد علي الطالب، السيد إبراهيم بن السيد صالح الهادي خليفة، السيد كامل بن السيد رشيد الهادي، السـيد إبـراهيم السمعوني والسيد أحمد عيض والسيد صالح الحاج أحمد، السيد أحمد مزيـان، السيـد محمد صالح (من ديشـوم)، السيد مصطفى الدلسي، محمد عـرب

* كلمة غير واضحة في النسخة

(من صفد)، السيد سليم الصالح، السيد أحمد الشريف، السيد عمر بن الشيخ من (......)*، السيد محمد عمر (من ماروس)، السيد الحاج شريف الزموري (من معذر).

سنذكر فيما بعد إتماما للفائدة أسماء الرجال الذين دافعوا مع المرحوم الأمير عبد القادر عن قناصل الدول ورعاياهم وحموا دماءهم أثناء حادثة الستين في دمشق الشام وهم: الحاج سعيد العربي، السيد عبد الرحمان الواثقي وابنه أحمد وابن أخيه علي بن محمد، السيد محمد الطاهر، السيد محمد السعيد بن الطيب، السيد أحمد بن الشيخ، السيد العربي بن يحي وابنه محمد مزيان، السيد محمد بن الحاج علي وأخوه السيد محمد، والسيد سعيد، السيد بن زروق أخوه السيد زروق، السيد شريف، السيد الطاهر بن أحمد السكلاوي، الحاج الحسين، السيد محمد بن الحاج بن محمد الشريف، أحمد ادريوش، السيد محفوظ بن محمد وابناه محمد وأحمد، السيد الهادي بن محمد وأخوه الصادق، السيد السعيد بن الشيخ وابنه السيد علي، السيد محمد مزيان بن عمر وابنه السيد محمد، السيد مزيان لونيس، السيد علي بن محمد واكنون، محمد بن الجودي، السيد أحمد بن الدلسي، السيد السعيد المقدم، السيد الخضير بن محمد واعمر، السيد محمد النافع، عمران بن محمد، محمد واحمد، احمد واعمر، السيد محمد سعيد السكلاوي، السيد محمد الطاهر بن السيد الطيب السكلاوي، السيد الشريف محي الدين، السيد منصور بن محي الدين، علي سالم بن محمد وأخواه احمد بن سالم وعمر بن سالم، ابن الحاج

* كلمة غير واضحة في النسخة

مختار، أب جمعة عاشور وأخوه سعيد عاشور، السيد محمد مزيـــان ايســـغي، السيد أحمد المولود وأبنائه السيد العربي والسيد السعيد والسيد عمر، الســـيد محفوظ الفضيل وابنه محمد، السيد محمد زرقي، الحاج عمر بن سعيد، قاسم بن سليمان، نذير بن يونس، السيد محمد السعيد بن قاسم، السيد الحاج أحمد بن سعيد، والسيد الحاج حمانة وابنه السيد سعيد منصور، السيد الحاج الســـعيد واكنون، الحاج محمد الحداد، السيد محمد صالح بن شريف، السيد علي بـــن لونيس، السيد عمر بن أحمد، علي بن أحمد الشريف، السيد ســـالم الميصـــر، السيد إبراهيم ينيوي، السيد أحمد كمون، السيد علي بن محي الدين، ســـعيد مصباح، السيد الحنفي، السيد سالم الهادي، السيد الوناس بن يوسف، السيد محمد مزيان الوريغي، عبد الله العربي، محمد مزيان بن مالك ابنه علي، إبراهيم بن محمد مزيان حموش، محمد سالم ادريرش، السيد أحمد قاسم الوريغي، السيد علي بن قاسم الوريغي، السيد محمد يحلم، السيد حسن بـــن يحلـــم، الســـيد شريف بن محمد، السيد محمد الصالح افليق، السيد أحمد القشـــطوني وابنـــاه السيد السعيد والسيد عمر، السيد الربيع لفقي، السيد محمد الربيـــع وابنـــه السيد الصديق، السيد السعيد، السيد أحمد بنوجلميم، الســـيد عمـــر بـــن الشريظ، محمد سعيد مصباح، علي فرحات وأبنائه أحمد ومحمد وموحند، قاسم وعلي ومحمد أبناء علي أحمد، إبراهيم بم محمود نذير، السيد محمد بن محمـــد المحجوب، إخوة السيد محمد المحجوب، السيد الطاهر فرحونـــ السيد طاهر بن مراو، عمر أزواو، سعيد بن لونيس، السيد أحمد بن علي وكنون، السيد علي بن مسعود، محمد بن عمر، الجميع من الزواوة.

تقريظ الكتاب

جرت عادة الكتاب والمؤرخين المتقدمين رحمهم الله أن يعرضوا ما كتبوا أو ألفوا على إخوانهم الكتاب العلماء أصحاب الفن لما عسى أن يظهر لهم في ذلك ويشهدوا على ما هنالك ويسمون ذلك تقريظا وأكثر المتأخرون في ذلك وبالغوا نظما ونثرا موافقين ومصادقين على ما يعرض عليهم صوابا أو خطأ والحق أن معنى التقريظ في اللغة كذلك أي مدح الكتاب أو المؤلف كيفما كان وفي القاموس "التقريظ" مدح الإنسان وهو حي بحق أو باطل.... ويظهر لي أن التقريظ إذا كان بسؤال وبطلب كما تقدم فهو باطل أما إذا كان بغير طلب وكان الحامل عليه الاستحسان فهو صواب والحال أن الكتاب استطاب سواء هو مقروظ أو غير مقروظ إذ من المأكول ما هو أفضل القروظ كاقتطاف القطائف فالحكم إذا للذوق السليم والعقل الحكيم حسن الكتاب إذا قرظ نفسه بنفسه وتجلت الحقائق التي...

تنقص الصفحة 100 من النسخة المطبوعة التي بين أيدينا

المنيف ثم إنني تتبعت تلك الصحف السبع وتدبرتها حرفا حرفا وراجعتها مرارا بلا خفا إن تنفست الصعداء وعلمت أن القول قول الفصل وما هو بالهزل وأقسمت برب السماء والأرض أنه لحق مثل ما أنكم تنطقون، وإن فريقا منكم ليكتمون الحق وهم يعلمون لله دركم من إحاطتكم علما بتلك الجمل التاريخية المفيدة أن في ذلك لعبرة.

وقال في رسالة ثالثة جوبا عن تعزية: وبعد فقد ورد علي مكتوبكم الأخير وفيه من الموعظة الحسنة والذكرى النافعة ما به كفاية والله ثم والله ما وعظني

أحد اتعظت لوعظه ولا ذكرني أحد فتذكرت لذكراه مثلما حصل لي من كتابكم هذا الذي قام لدي مقام شخصكم فكأنكم شافهتموني بما احتوى عليه من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية التي أعيننا عند تدبرها دامعة، وقلوبنا خاشعة وبقضاء ربها راضية وإلى حكمه راجعة فوعظت فكنت من الواعظين وذكرت فكنت من المذكرين فجزاكم الله عنا أحسن الجزاء...إلخ.

وكاتبني الشيخ طاهر الزواوي ثم الدمشقي الشهير بالجزائري جوابا عن رسالة لي إليه في شأن الزواوة وخصائصهم قبل اجتماعنا إذ هو بمصر وأنا بالشام فقال: أحيي فيك نزعة إصلاحية ونهضة زواوية وقد أثبت لي كتابك هذا ما بلغني عنك من غير واحد ثم اعلم أن تاريخ الزواوة تاريخ مجيد وتراجم علمائهم أشهر من أن تذكر وأكثر من تحصر وإنما يلزم أن تحرر لنا رسالة في لسانهم قبل الشروع في تاريخهم –وتقدم ذكر هذا المعنى– وفي الديباج المذهب في أعيان المذهب وتاريخ ابن خلكان والسخاوي وغيرها من الكتب جملة من علماء الزواوة فراجعها... إلخ.

ولما اجتمعت به بمصر وسكنا معا مدة خمسة أعوام تقريبا كلفني بتحرير مقالات كثيرة وبتأليف في النحو وآخر في إلزام الشبان الأصحاب التدين وألح علي في إثبات مذكراتي ونظراتي في السياسة وكان معجبا بها شهادة الإخوان الشاميين والمصريين الدين هم بقيد الحياة وكان يرسل إلي شبانا من تلاميذه وخواصه لتلقي المواعظ والإرشادات إلى غير ذلك من ظنه الكمال وهو الكامل وكان يعجب باستدلالي بالقرآن وتطبيقاتي الدينية واعتباراتي إياها

ومما يعجبه بالزيادة ويضحك له حتى تظهر نواجذه قولي: "إن الناس كفــروا بألمانيــا على أن الباء سببيــة[1] وكان يتألم من سماع انتصارات ألمانيا لشدتهــا في إرهاق الحد المضر وبالجملة لذا تذكرته ونحن بمصر وتذكرت ابن زكــري المرحوم الشيخ محمد السعيد ونحن بالجزائر أتمثل:

وكنا كندماني جذعيــة حقبــة   من الدهر حتى قيل لن يتصدعا
فلما تعرفنــا كأنــي ومالكــا   لطول اجتماعنا لم نبت ليلة معا

وكاتبــني المحب الفاضل المقري الحافظ الشيخ السعيــد ايجر بما نصــه: "وما أهديتموه إلينا من جواهر آدابكم استودعناه الحافظــة واســتنارت بــه البصيرة فيجدر بنا أن نجعل رسائلك البليغة الولائم لأنها تفوق لدنيا الأعيــاد والمواسم ولعلك لتفضل علينا بمزية أخرى هي أن تتحفنا بتاريخ مبدأ تعلمــك وذكر الكتب التي أورثتك حسن الملكة.... إلخ"

وبالله التوفيق إلى أقوم طريق وهو سبحانه الولي الحقيق.

---

[1] ذلك بأن الناس أكثرو من القول أن ألمانيا لا تقهر فكذبهم الواحد القهار الذي غفلوا عنه.

الفهرس

التعليق

تاريخ الزواوة

... والملفت للنظر أن الزواوة والبربر عموما الذين سعى ويسعى الاستعماريون وأذنابهم لطمس تاريخهم، أن الكتاب الذي حول التاريخ إلى علم هو الكتاب الذي يظهر تاريخهم وهو أول كتاب تاريخ لهم أوليس اسم كتاب ابن خلدون هو "كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر" والتاريخ لم يكن قبل هذا الكتاب قد تحول إلى "علم" بكل ما تحمله كلمة علم من معنى!

ثم إن البربر وخصوصا الزواوة منهم لهم باع طويل في التأرخة وكتابة التاريخ، فقد أورد معجم أعلام الجزائر 29 علما جزائريا معظمهم ممن كتب في التاريخ وتنتهي أسماؤهم بلقب الزواوي، ومنهم صاحب كتابنا هذا محمد السعيد أبو يعلى.

مديرية الفنون والآداب
صندوق دعم الابداع

الايداع القانوني: 2005-810
ISBN: 9947-24-050-9